إبراهيم الهطلاني

مملكة جبران



رواية

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

إبراهيم الهطلاني

مملكة جبران

روايـــة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

مملكة جبران

Gibran's Kingdom

Novel

Ibrahim Al-Hatlani

First Published in March 2011

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21 - 499 - 9

الطبعة الأولى: آذار (مارس) ٢٠١١

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

المحتويات

إهداء

مع فائق التحية.. وخالص الدعوات الرحيمة

إلى روح عبد الله القصيمي

لقد عـاد .

إني أخاف مجيء هارون الرشيد الجديد لأني قرأت عن هارون الرشيد القديم، كان يقاتل بآبائي ويقاتلهم بالسيوف والرماح والسهام والنبال، كان ينفق قوت آبائي على الجواري والشعراء والمغنين، كان يعرض ذاته وهيبته ووحشيته وكبرياءه فوق المنبر وفي المسجد وفي مواكبه البدوية المنطلقة من القصر إلى المصلّى، ومن المصلّى إلى القصر، ومن هذا القصر إلى ذلك القصر، ومن مخدع هذه الجارية إلى مخدع الجارية المنافسة الأخرى، كان يحارب ذكاء آبائي وحرياتهم بالمشايخ وبالآيات والأحاديث، وبالأنبياء وبالسلف وبالقبور...

(لئلا يعود هارون الرشيد) عبد الله القصيمي.

في القصر

رغم بلوغها الخمسين من عمرها ما زالت غزالة تحن إلى لحظات المراهقة القديمة وتشعر بأن في قلبها بعض الأماكن ما زالت شاغرة، وفي جسدها أجزاء لم تلمس بعد، تشعر غزالة بأنها قادرة على الإغراء والتأثير في كل زمان ومكان، ولا تتردد في الاستجابة لنزواتها كلما نبض قلبها وتدفقت الدماء في بعض شرايينها، تستجيب ساعات لنداء الشياطين وفي لحظة ترتدي لباس الملائكة، سيدة التناقض، بين قلبها وعقلها مسافات شاسعة وإشارات متناقضة تناقض الوطن الذي تراكم في باطنه آلام وآيات محترقة وهياكل عظمية صُنع من رفاتها قِبلة للشعب، لا يكِلّ المتسلطون في الوطن من نهب باطنه وبطون أبنائه ليتجملوا به ويقنعوا الآخرين بأنه ما زال شامخاً.. فقط بوجودهم، كوجه غزالة المشدود بفعل المشارط وحقن التجاعيد ومساحيق التجميل حتى يقنع العيون الغائرة.. والثائرة على كل شيء بأنه وجه ملاك.

إنها تبدو كالشجرة العتيقة التي تمتد بجذورها خارج الأسوار والحدود بحثاً عن الماء وأحياناً الرطوبة، تعيش للحظتها المبهمة بجمالها المزيف، لا تفكر في غدِها ولا تحمل همَّ أحد سوى ذاتها.

ذاك هو الوطن بتاجه الورقي.. وتلك هي غزالة الزوجة الثالثة للوزير سهران الذي فقد قدرته الجنسية منذ عقد ونيف من الزمن وهو الآن قد تجاوز السبعين من عمره وظل يستعين بكل ما يصل إلى سمعه من أدوية وأعشاب وببعض اللحظات المجنونة لتنشيط ذكورته حتى أدرك الحقيقة وفقد الأمل ولجأ إلى تدخين الحشيش بحثاً عن متعة بديلة تعوضه عن متعة النساء، وربما رغبة في تناسي ما يصله من أخبار أن هناك امرأة تبحث في مكان ما خارج أسوار القصر عن المتعة والإثارة.

الوزير سهران هو أحد أبناء السلطان جبران (الخامس) من سلالة جبران (الأول) بن فطام الشاطر الذي أجبره الغزاة على ترك واحته التي كان يحكمها على الساحل الغربي للخليج العربي وهاجر بزوجته المريضة وابنتيه وبعض أتباعه وشيء من متاعه إلى جنوب شرق آسيا في منتصف القرن السابع عشر حيث تزوج هناك بالوريثة الوحيدة لأحد السلاطين، وتولى تصريف شؤون السلطنة بسبب مرض السلطان الذي توفي بعد بضعة أشهر ليترك السلطة والثروة بيد ابنته وزوجها جبران (الأول) ومنذ ذلك الوقت ظل الحكم مستمراً في أبناء وأحفاد جبران الأول من زوجته الثانية حتى وصل الأمر إلى جبران (الخامس) الذي خلّف وراءه عشرين وريثاً يتقاسمون ثروة كبيرة تحت الأرض وفوقها وصفحات من التاريخ الملتبس، ورغم الأزمات والمواجهات الخطيرة التي وقعت

بين ورثة العرش الجديد إلا أن الحُكم كان يتنقل بين أبناء جبران في الغالب بطريقة سلمية متفق عليها عُرفاً في وجود اصطفاف وتنافس مستتر بين أركان عائلة جبران.

وبوفاة الوريث الرابع السلطان حواس بن جبران انتقلت مقاليد السلطة إلى ولي عهده وأخيه غير الشقيق مرطان بعد صبر طويل وانتظار ممل غالبه اليأس. أصبح مرطان سلطاناً متوجاً على ما كان يسمى جزيرة الرمل وهي اليوم دولة شاسعة الأطراف تمتلك مقومات التأثير المالي والديني بين الكيانات السياسية في المنطقة. كان حواس يشكل بشخصه وبمن حوله علامة فارقة في ثقافة الفساد بشقيه المالي والأخلاقي، فهو لم يتوان قط في شبابه ولا في كهولته عن أي متعة ترضي غروره وتشبع شهوته إلا صال وجال في سلوكها وأبدع في تفاصيلها. ورغم شهرته بسهراته الماجنة وسلوكياته المنكرة كان رجال الدين يتسابقون في التودد إليه والتقرب منه بالدعاء أحياناً والثناء عليه بما تيسر من القصص والأدلة الشرعية، فتجد أحد المنتسبين للدعوة والفقه يكتب فيه قصيدة عصماء لم يحظ بها سلف الأمة وعظماؤها، وآخر يصفه بمقالة بأنه أمة في رجل ورجل يعدل أمة، وثالثاً يخصص له شطر خطبة الجمعة وفيها يجاهد في لوي كل ما في ذاكرته من أدلة ونصوص دينية ليقنع الحاضرين في المسجد أنه يتحدث عن ملاك أو فاتح عظيم يُسمى حواس، والمواطن البدوي البسيط الجالس في أقصى ركن ينتظر الصلاة، يدرك بفطرته النقية حقيقة هذا الشيخ وذاك الأمير ويستغفر ربه من سوء ما سمع ويلعن الكذابين واللصوص الظالمين.

الدين والمال والإعلام أسلحة نافذة يستخدمها أبناء جبران

ويطوعونها في كل الأحوال للإبقاء على حكمهم وللسيطرة على شعبهم، ولأنهم لا يملكون كل المال ولا كل الدين أو على الأقل لا يملكون من الحال والسلوك ما يساعدهم على إقناع كل العالم بصدق ادعاءاتهم فإن التجاذب على أشده بين المدّعين للحقيقة والباحثين عنها، والمواجهة بين أصحاب المبادئ والمصالح مستمرة حتى الساعة، إضافة إلى أن هناك في مكان ما قريب أو بعيد من يملك ذات القوة والتأثير في العالم وربما نفذ بقوته إلى الداخل، فضلاً عن حجم التدفق المعلوماتي الكثيف عبر وسائل الاتصال الحديث التي تمكنت من اختراق الجدار الذي بناه الوزير سهران وإخوته ووالدهم من قبلهم، بل إن الحقيقة والمعرفة فرضت قوتها وواقعيتها داخل السلطنة ونفذت بنورها إلى داخل الأسوار الحصينة والغرف المخملية.

يعتمد المتنفذون في أسرة جبران على وجود أخيهم الوزير سهران وجهوده للمحافظة على أمنهم الداخلي واستمرار سلطتهم، ورغم قوته ونفوذه الداخلي وعنفوانه ضد المعارضين والمنتقدين، يبدو أن سهران عاجز عن لجم جموح زوجته المتصابية مع أنه يعلم بكل خطواتها في الداخل والخارج، وهذا الوضع الغريب يثير في نفوس المقربين أسوأ الظنون ويروج على ألسنتهم مصطلحات الهمز اللعين، وفي أحيان كثيرة تسببت غزالة بحدوث إشكالات دبلوماسية وفضائح إعلامية للأسرة الحاكمة نتيجة تصرفاتها المتهورة خلال تواجدها في بعض الدول الأوروبية للاستجمام والتسوق.

قبل أن تكون «غزالة» وقبل ارتدائها الخمار، قبل أن تخط بإرادتها مفردات أنوثتها وتقرر لنفسها مواقيت النُسك، وقبل أن تحدد خبر

حياتها الذي ابتدأه الآخرون وتختار جُملها الفعلية، وقبل أن تستمتع بالفاعل الذي طالما أرغمها واستمتع بها وأرادها فعلاً مطلقاً.

كانت «جمرة» طفلة تلهو مع صويحباتها في الساحة الجانبية لمنزل عائلتها، كانت تلوذ بوالدتها كلما رأت أو سمعت صوت والدها داخل البيت أو حال دخوله إليه، كان قاسياً، شديداً في عائلته خاصة مع الإناث. والدها عوض كان يعمل في مجلس السلطان جبران الخامس وله نفوذ وسطوة، والدتها الجميلة اختارت لها اسم جدتها «جَمرة»، والدها اختار لها زوجها الذي أصبح لاحقاً سفيراً في إحدى الدول الآسيوية، والوزير سهران اختارها زوجة له بعدما رآها في إحدى المناسبات الدبلوماسية وافتتن بجمالها وطلب من زوجها أن يطلقها ولم يمض على زواجها إلا بضع سنوات.

كانت مُسيرة، تنفذ إرادة الآخرين تخضع كما سائر الضعفاء للسائد والسلطة، عندما رأتها «أم رامي» تلك العجوز الشامية حمالة الطيب والأقمشة والحلي الثمينة التي تجلبها من تركيا والشام خلال زيارتها الشتوية المعتادة للعائلات الكبيرة المحافظة في أواخر خمسينيات القرن الماضي، شعرت ناحيتها بود وجاذبية وقالت:

ـ لديّ ثياب ومصاغ جميلة لتلك الغزالة الصغيرة.

ـ هذه ابنتي البكر، اسمها جمرة.

استغربت أم رامي هذا الاسم وبحدة غير معتادة منها:

ـ حرام عليكم، هذه البنت الجميلة تستحق اسماً جميلاً مثلها.

ـ انتبهي، هذا اسم والدتي رحمها الله فلا تعيبي فيه.

ـ أنا لا أعيب فيه ولكن الأحوال والأسماء تغيرت وستظهر أسماء جديدة، وتذكري أن نبينا محمد قد غير أسماء لم تكن مناسبة في حينها، ومن حق أبنائنا علينا اختيار أسماء لا تنغص عليهم حياتهم أو تعيبهم في مستقبلهم، ولا أعتقد أن رجلاً طبيعياً يقبل الارتباط بفتاة اسمها جمرة، أنصحك بتغييره من أجل مستقبل ابنتكم.

بعد تفكير يسير يبدو أنه ترك أثراً إيجابياً أدى إلى شبه اقتناع بكلام ضيفتها ذات الفهم والمعرفة بأحوال العائلات والقبائل:

ـ على خير، سأفاتح أبانا بالموضوع، وإن شاء الله يوافق.

غادرت أم رامي منزل الوجيه عوض وقد نجحت في تصريف بعض ما تحمله وتوجهت بعد ذلك إلى عائلة أخرى لعلها تفوز ببعض المكاسب والمعارف.

في تلك الليلة بالذات كان مزاجه معتدلاً، يبدو أنه تلقى مكافأة أو خبراً سعيداً من سيده جبران، لاحظت أم جمرة أن زوجها عوض يمازحها ويداعبها على غير عادته النكِدة، وكان مبتسماً وهو يتناول فنجان القهوة من يد زوجته، وبعد تردد وخوف قررت الزوجة استغلال الحالة المنفرجة لزوجها ومفاتحته بتغيير اسم ابنتهم وكانت تعتقد أنه سيثور عليها كعادته أو يتردد في أحسن أحواله، إلا أنها فوجئت بأنه اقتنع بسهولة وترك الأمر لها، بل إنه لم يهتم أصلاً بالاسم الجديد لابنته، ربما لأنه لم يرغب في تعكير مزاجه «الرايق» وربما لأن الأمر متعلق بأنثى وهو لا يجد في شؤونهن ما يستحق الاهتمام. تذكرت زوجته في حينها اسم غزالة

أو الوصف الذي ورد على لسان أم رامي، وقالت لزوجها ما رأيك باسم غزالة؟ فرد عليها: كما تحبين، إنه مناسب.

أصبحت صبية تتردد مع قريناتها على المعلمة «أم الهادي» التي كانت تتولى تعليم بنات العائلات الكبيرة والمقتدرة في وسط العاصمة حيث مقر قصر الحكم ومحيطه السكني الراقي. في دار أم الهادي تلقت غزالة دروسها على الطريقة القديمة «الكتاتيب» في القراءة والكتابة والحساب والقرآن، لم يكن التعليم آنذاك متاحاً لكل الذكور، ومن باب أولى أنه لم يتح لكل الإناث إلا قلة منهن وتحديداً من بعض العائلات الأرستقراطية التي لا تعتمد كثيراً على جهود بناتها ونشاطهن في الخدمة المنزلية.

عندما بلغت غزالة سن المراهقة وبدأت دلائل أنوثتها تكشف عن نفسها، وتلفت الانتباه بالبروز والتكعب، قرر والدها عوض منعها من الخروج من البيت إلا للضرورات ولم يكن التعليم من ضمنها. كانت غزالة مختلفة عن قريناتها سواء في داخل العائلة أو في الحي كله، كانت تحب الظهور المختلف في مظهرها أو طريقة كلامها، كما تحب رؤية الاهتمام في عيون الآخرين، تحرص دائماً على أن يكون صوتها الأعلى في أي تجمع نسائي مما كان يغضب والدتها باستمرار، ولم يردعها تعنيف والدها لها كلما سمع صوتها أو شاهدها ترتدي ثوباً غريباً لم تألفه عيناه، لم تستسلم قط لكل محاولات السيطرة والتوجيه وإن كانت أحياناً تضطر للمسايرة إذا ما أعيتها الحيل وقهرتها الظروف، كان لمعلمتها المثقفة «أم الهادي» أكبر الأثر في نزوعها للاستقلال والتميز.

ظلت غزالة تتردد على دار «أم الهادي» لمدة ثماني سنوات وكان

حرص الفتاة الصغيرة يتجاوز مجرد تعلم الكتابة والقراءة إلى مجال المعرفة المتاحة آنذاك وهي محدودة في مجملها، كانت أم الهادي تحكي القصص لفتياتها، وكانت تجد في ملامح غزالة ما يحفزها على بذل اهتمام خاص يتناسب مع رغبتها الجامحة في التعليم والمعرفة بعكس زميلاتها اللاتي لم تتعد اهتماماتهن القدرة على الكتابة والقراءة وفي أضيق حدودها، ومع كل سنة جديدة تضيف غزالة إلى تفكيرها مساحة إضافية ومصطلحات ومعارف جديدة خاصة في ما يتعلق بشؤون المرأة جسداً وروحاً.

بعد عام من انقطاع غزالة عن التعلم اضطرت أم هادي إلى مغادرة العاصمة مع زوجها بعد استغناء السلطان عن خدماته. كان عرفان يعمل خياطاً للرجال منذ ثلاثة عقود منها خمسة عشر عاماً في خدمة البلاط السلطاني، يذهب كل شهرين إلى قصر الحكم لأخذ مقاسات السلطان وباقي ذكور العائلة كباراً وصغاراً ليجهز لهم ملابسهم المميزة عن بقية المواطنين مع أخذه فصول السنة في الحسبان عند اختيار نوعية القماش أو الألوان. وقبل مغادرة أم الهادي مع زوجها بيوم واحد أصرت غزالة على الخروج من البيت لرؤية معلمتها وتوديعها قبل سفرها، كان موقفاً مؤثراً جداً لكلتيهما، لم تجد أم الهادي شيئاً تهديه لتلميذتها ذات الستة عشر ربيعاً إلا بعض الكتب والروايات ليستمر الارتباط الروحي بينهما بعد الفراق الجغرافي.

تتعاقب الفصول والأعوام وغزالة تزداد روعة وجمالاً تتحاكى بها مجالس النساء وتثير اهتمام الخطّاب عزاباً ومتزوجين، رغم أنها لم تتجاوز في تعليمها العام حدود المسموح به لمثيلاتها من بنات العائلات الكبيرة، وكن يصلن إلى المستوى الموازي للتعليم

المتوسط حالياً وهو الحد الأعلى المتاح آنذاك للفتاة قبل أن تذهب إلى بيت زوجها.

قَبِل والدها طلب أحد كبار التجار الذي أرادها زوجة لابنه الأكبر، وافق الكبار واتفقوا على كل شيء ولم يكن لها رأي في شيء.

في منتصف الثمانينيات كان زوج غزالة مسؤولاً في إحدى سفارات السلطنة في آسيا عندما أقام مأدبة عشاء في منزله تكريماً للوزير سهران الذي كان في زيارة رسمية، وأثناء اصطحاب الدبلوماسي المضيف لسهران في جولة خاصة داخل حديقة منزله، لمح سهران غزالة وظل يراقبها من بعيد وقد بدا عليه الاهتمام بتلك الظبية المثيرة بجسدها الرشيق ووجهها الوضاء المطعم ببعض الملامح الحلبية الموروثة من جذور والدتها، إلا أنه بقي يجهل اسمها وصفتها حتى بادر الزوج بتقديم زوجته لأبرز ولاة الأمر في السلطنة! ربما بحسن نية أو لحاجة في نفس يعقوب كي تسلم على الوزير الضيف الذي ازداد انشغالاً بها، وظل خيالها يطارده في كل الأمكنة، والشوق إلى عينيها أعماه عن كل تاء مربوطة أو مفتوحة سبق أن رآها أو سمع صوتها.

لم يتمكن سهران من نسيانها أو صرف طيفها عن تفكيره وسرعان ما أرسل إليها امرأة كي تسألها إن كانت توافق على الزواج به بعد تطليقها من زوجها. طلبت مهلة للتفكير فازداد تعلقاً وانشغالاً بها خاصة بعدما علم أنها لم يسبق لها الإنجاب والرضاعة، وبعد أسبوع بلغته موافقتها بشرط أن يطلقها زوجها بمحض إرادته بدون إجبار، ربما لقياس مكانتها عنده أو رغبة منها في تعويضه خسارته إن كانت تعني له شيئاً، وقد يكون رميها إلى أبعد من ذلك كله، لم يكن لمشاعرها أي دور في تلك الصفقة فالأمر بالنسبة لها

سيان، هي لم تختر يعقوب الذي لا تربطها به أي مشاعر أو أحلام أكثر مما كُتب في ورقة النكاح، ولا تنتظر منه الحب ولا الذرية لأنه عقيم في كل شيء، وقد تحقق لها الحياة مع سهران بعض الأحلام والآمال الأنثوية المفقودة، والأوضاع الاجتماعية المتميزة في أسوأ الحالات.

أرسل الوزير أحد المقربين الثقات إلى الدبلوماسي يعقوب الطامح إلى شغل منصب السفير الذي توفي قبل أسبوعين بأزمة قلبية، لإقناعه بتحقيق رغبة الوزير التي لن تكلفه شيئاً بل سيحقق أحلامه الوظيفية وربما أكثر، أما إذا رفض وعاند فقد يخسر أشياء كثيرة، وبعد عدة لقاءات مشحونة ببعض إيحاءات الترغيب والتهديد وافق نائب السفير على تطليق زوجته، وبعد انتهاء فترة العدة أصبحت غزالة زوجة للوزير سهران وأصبح زوجها السابق سفيراً بمرتبة وزير، لقد تغير اسمها وتبدلت صفتها.. كما تغير اسم الوطن وكل صفاته الحسنة.

انتقلت غزالة إلى قصر سهران أو أحد قصوره وأصبحت جزءاً من أملاكه بل من أعزها عنده، وانضمت إلى عالمه الخاص، ورغم أنها آخر زوجاته وخاتمة رغباته التي اختارها وتعلق بها وما زال يفضلها على كل من سبقها من النساء سواء الزوجات الثلاث أو المطلقات وهن كُثر، إلا أنها وبعد كل العز والنعيم الذي تعيش فيه لم تشعر ناحيته بما كانت تحلم به أو تتمناه مع الرجل الذي ترتبط به، لقد عاشت زوجة مميزة تفتقد المشاعر المميزة، وامرأة غنية في ظاهرها فقيرة في داخلها تبحث دوماً عن الحب الأخاذ، ومازالت حتى بعد مضي أكثر من عقدين على زواجها الثاني تبحث عن موضع لها في أبراج الحظ وليالي الياسمين.

غزالة ليست الحالة الفريدة أو المرأة الوحيدة داخل عائلة جبران التي تعاني التهميش العاطفي والحرمان الجسدي فهناك عشرات الأسماء ومئات القصص منها ما يجري تداوله على مستوى الحاشية والمقربين ومنها ما يتسلى به المواطنون في مجالسهم الخاصة، والبعض الآخر يجد طريقه إلى وسائل الإعلام الأوروبية والآسيوية.

عندما تلتقي غزالة بشقيقتها ياسمين أصغر زوجات الوزير شاهين المسؤول عن الجيش والتجهيزات العسكرية تنكشف الأسرار وتبوح كل منهما للأخرى بما تعانيه من حزن وحرمان رغم ما تنعمان به من مال وصحة ونفوذ.

ورغم أن ياسمين أصغر سناً من شقيقتها غزالة إلا أنها تظهر أكثر اتزاناً وهدوءاً ولا تجاهر برغباتها وتحرص على الاحتشام أثناء تحركاتها داخل البلاد وخارجها، ولذلك تبدو معاناتها مركبة وحالتها معقدة فهي مازالت في العقد الرابع من عمرها وزوجها الوزير شاهين الذي يكبر شقيقه سهران بعامين يعاني من الأمراض المزمنة إضافة إلى وجود ثلاث زوجات أخريات في عصمته، وقد انضمت إليهن بعدما كانت متزوجة مدة خمسة أعوام من مجبور ابن عم شاهين قبل طلاقها منه بسبب إصابته بالعقم لتتزوج من شاهين رغم الفارق الكبير في السن، إلا أنه سرعان ما أصيب بالضعف والمرض نتيجة تقدمه في السن وإسرافه كبقية رجال العائلة في الشراب والملذات بكل أنواعها بلا رادع، وكان ذلك بعد حملها الأول منه حيث رُزقت منه بولد وحيد وبعدها أيقنت أنها كالمستجير من الرمضاء بالنار، وما زالت تحبس مشاعر الحرمان ولا تبوح بآلامها إلا لشقيقتها غزالة.

وبينما كان بعض الكبار في العائلة الأولى يستمتعون بقضاء إجازاتهم في شواطئ ومنتجعات أميركية وأوروبية، نشرت الصحف الفرنسية خبر اعتقال عزيز وهو شقيق ياسمين وغزالة أثناء توقفه القصير في أحد المطارات الباريسية بتهمة تهريب كمية كبيرة من الحشيش والهيروين في طائرته الخاصة القادمة من إحدى دول أميركا الجنوبية وهو في طريقه لعاصمة الوطن، بدأت السفارة بإجراء اتصالاتها مستعينة بمكتب للمحاماة يتولى متابعة القضايا الحساسة ومنها قضايا العائلة الحاكمة.

وصل الخبر لشقيقته غزالة التي سارعت إلى الاتصال بشقيقتها ياسمين وببعض المتنفذين في الأسرة وأخبرتهم بما حصل لعزيز، وتسارعت الاتصالات بين الكبار وكان القلق بادياً على وجه سهران الشاحب أصلاً نتيجة السهر وتدخين الحشيش، لقد إيقظوه من النوم الساعة العاشرة صباحاً ولم يمض على نومه سوى أربع ساعات، وهذا أسلوب حياته منذ عقود حيث ينام بعد الفجر حتى الساعة الثانية عشر ظهراً ثم يتوجه لمكتبه في وزارة الأمن، وبين غضبه من وجود الهيروين ضمن الشحنة وخشيته من تسرب أي معلومة عن علاقته بشحنة الحشيش ظل الوزير سهران متوتراً وملازماً لمكتبه لمدة ثلاثة أيام لا يغادره إلا لساعات منذ اللحظة الأولى لانتشار خبر اعتقال صهره، وكان مصراً على إنهاء هذه القضية بأي ثمن حتى لو اضطرت حكومته للانسحاب من صفقة السلاح التي تم الاتفاق عليها مع الحكومة الفرنسية وكانت تقدر بعشرين مليار دولار، وهذا الخيار نوقش مع شقيقه شاهين وزير الجيش والمسؤول المباشر عن عقود التسلح، وقد جاءت الرياح بما يشتهيه سهران، حيث نجح شاهين في إقناع الفرنسيين بحل القضية بعيداً عن القانون والإعلام وإيجاد حل يحفظ للطرفين

مصالحهما وانتهت القضية بعودة عزيز إلى عاصمة بلاده ولكن بدون شحنة المخدرات، مع وضع اسمه في قائمة الممنوعين من دخول فرنسا، وأغلب دول الاتحاد الأوروبي.

في اليوم التالي لعودته من باريس طلب الوزير سهران إحضار صهره إليه في المكتب، كان سهران غاضباً جداً من عزيز لإساءته للأمانة! واستغلال وضعه العائلي، وإحراج حكومته في عملية خاصة به بدون علم الوزير، كان غضب الوزير سهران بسبب وجود شحنة الهيروين في الطائرة الخاصة التي قدمتها غزالة هدية لشقيقها عزيز، سهران لم يكن يعرف أن الهيروين قد تفشى داخل القصور السلطانية على حساب المكيفات الأخرى، وعندما توجه الوزير بسؤال صهره عن صاحب الشحنة أو من يتعاطونها رد عليه عزيز بقوله: كما أن للحشيش زبائنه، كذلك للبودرة زبائنها وأكثرهم من الشباب وسوقه يتوسع في الطبقات العليا، كانت التقارير التي تصله من مكتب مكافحة المخدرات تؤكد أن انتشار حبوب الهلوسة والهيروين مازال تحت السيطرة وفي الحدود المسموح بها، وأن ثمانين في المائة من عمليات التهريب تكشف وتتابع. كان سهران الحشاش يكره الهروين وما زال يتذكر حالة شقيقته قبل وفاتها نتيجة تعاطيها جرعة زائدة، الوزير لا يعلم أو أنه لم يحرص على العلم أو التحقق من المعلومات التي تصله عن حجم وخطورة انتشار تعاطي الهيروين بين الشباب، وبأن كثيراً من المتعاطين للحشيش تحولوا إلى الهيروين وأن عزيز مجرد وسيط يعمل لصالح أسماء كبيرة لا تخضع للمكافحة ولا ترصدها التقارير.

وفي المقابل سارعت حكومة السلطنة إلى تنفيذ العقود العسكرية

المتفق عليها مع الفرنسيين، وأضيفت لاحقاً بعض الاتفاقيات الأمنية، وسيتوجه الوزير سهران شخصياً لتوقيعها في باريس.

وقد جرت العادة في مثل هذه العقود الضخمة أو المضخمة التي تبرمها السلطات العسكرية في سلطنة جبران على أن يحصل الوزير شاهين والوسيط المحلي على نسبة الربع من قيمة العقد وغالباً ما يكون هذا الوسيط ابن الوزير أو أحد أفراد العائلة المقربين.

وكذلك حال وزير الأمن فنسبته ثابتة في كل العقود المتعلقة بتجهيزات المؤسسات الأمنية، كما يتحكم شقيقه بميزانية الجيش وكل ما يتعلق به من شؤون عسكرية أو مالية، أما السلطان فله نصيب الأسد من الدخل القومي وهذا الأمر متفق عليه ضمنياً بين كبار العائلة وعُرفٌ ثابت مع كل سلاطين آل جبران، حيث يستحوذ السلطان الحالي مرطان على ثلث عائدات الغاز والنفط وهما أساس الثروة الوطنية للبلاد وعماد اقتصادها والثلث الثاني يتوزعه بقية أفراد العائلة كلٌّ بحسب مكانته والثلث الأخير يخصص لميزانية البلد بكامله، وحتى هذا الجزء المرصود للمواطنين على قلته لا يسلم من غارات الشطّار.

السرقة في سلطنة جبران ونهب الأموال العامة والخاصة فن عريق ونظام له أصوله ورجاله، وهذا الواقع تدركه شركات الصناعة الدولية وتتعامل معه بواقعية كبيرة وتخصص مبالغ ضخمة لرشوة أصحاب القرار في السلطنة للحصول على تلك العقود التي تتضمن بشكل مسبق مبلغ الرشوة أو العمولة مضافاً إلى القيمة الحقيقية للعقد، وهذا السلوك التجاري أصبح عادة اقتصادية متبعة داخل النظام السلطاني.

وهناك عادات اجتماعية معتمدة كذلك داخل عائلة جبران حيث يحرص الكبار فيها على تزويج أبنائهم في سن مبكرة ليس طلباً للعفة والتحصين لهم بل رغبة في الإنجاب والتكاثر، إضافة إلى حاجة البعض في التقَوي والتعاضد بالبعض الآخر. ولذلك لم يكن مستغرباً حرص غزالة على تزويج ابنها البكر سيف بن سهران وهو في سن الخامسة والعشرين من عمره بإحدى بنات العائلة فهذا الارتباط الرسمي والشرعي هو العلاقة الظاهرة المعترف بها داخل الأسرة الحاكمة رغم أن العلاقات التي تمارس خارج الأطر الرسمية والشرعية أوسع وأكثر حميمية، إلا إنها في حكم المسكوت عنه والتلفظ بها ليس بدعة فقط بل من الكبائر المخرجة من الملة والحياة معاً، ولا يجرؤ أحدٌ من المواطنين على الإشارة إليها فضلاً عن تناولها بصراحة وعلانية، والكهول فيهم يعلمون قبل الشباب أن أغلب ذكورهم وإناثهم يمارسون العلاقات السرية في كل مكان وزمان في الداخل والخارج.

لم تمض بضعة أشهر حتى ظهرت تباشير حمل زوجة سيف، حينها اطمأنت غزالة وقررت استئناف حياتها الخاصة التي تبدأ بالسفر إلى باريس للاستجمام وإجراء الفحوصات الطبية التي تعودت عليها للوقاية من المرض الخبيث الذي يلتهم صدور النساء ويشوّه واجهتهن الأنثوية، ولها في باريس مآرب أخرى.

فارس أول من علم برغبة غزالة في السفر إلى باريس، عندما أرسلت له رسالة هاتفية وكان حينها في لقاء شخصي مع عدد من مشجعي وزوار النادي، كلماتها محدودة ومختصرة:

– حبيبي اشتقت إليك، أنتظرك الأسبوع القادم في باريس.

ـ حياتي، وأنا كذلك اشتقت إليك.

ثم اتصل بها لاحقاً ليؤكد لها حبه ويتفقا على تفاصيل اللقاء، إنه صديقها الحميم شاب في العقد الثالث من عمره، رياضي، فيه تجتمع الوسامة والرجولة، لاعب كرة قدم مشهور بنادي العاصمة يلفت نظر واهتمام أي هيفاء جميلة أمامها خيارات متعددة فما بالك بامرأة في خريف العمر تجاهد لتبقى على الأمل.

تبذل غزالة كل ما في وسعها للإبقاء على صلتها بفارس والاستحواذ على اهتمامه باستمرار، أما فارس بما له من شهرة وسمات رجولية بارزة وعلاقات نسائية بمختلف الأعمار والأشكال فإن غزالة لا تعني له أكثر من اسم مميز ضمن قائمة طويلة من المعجبات، إلا أنه لا يجرؤ على إغضابها لنفوذها وسطوتها ولذلك يحرص على مجاملتها إلى أبعد الحدود.. والاستفادة منها أيضاً.

كذلك عرضت غزالة على أختها ياسمين مرافقتها في رحلتها إلى باريس للاستجمام وأقنعتها بأنها هي أيضاً تحتاج لإجراء بعض الفحوص للاطمئنان إلى صحتها وتجديد نضارتها، وقالت مازحة:

ـ حتى لا يكون مصيرك كمصير زوجك.

ـ دعيني أفكر وسأردّ عليك قريباً.

وبعد تردد يسير وافقت ياسمين على عرض أختها لكن بعد أخذ الموافقة من زوجها الوزير شاهين الذي لا تكاد تراه إلا مرة أو مرتين في الشهر فهو لم يعد يرغب فيها كالسابق، أو لنقل إن الرغبة هي التي لم تعد تساعده على إتمام واجباته الزوجية المتعددة.

سارت الأمور كما أرادت غزالة وتحدد موعد الرحلة وتمت الإجراءات الرسمية المعتادة في مثل هذه الحالات بما فيها التوجيهات الصادرة للسفارة في باريس لتهيئة الاستقبال والإقامة والمرافقة. كان موعد الرحلة تمام التاسعة صباحاً، توجهت غزالة إلى الصالة الخاصة في المطار بصحبة ابنتها الصغرى وردة بنت سهران وهي في العشرين من عمرها، وما هي إلا دقائق حتى حضرت شقيقتها ياسمين مع ابنها الوحيد مهند بن شاهين الذي يكبر ابنة عمه وردة بسنة واحدة.

استغرقت الرحلة ست ساعات أمضتها الشقيقتان وهما شبه مستلقيتين على مقعديهما الوثيرين في مقدمة الطائرة بين نوم وأكل وشرب وحديث طويل بينهما بثتا خلاله الشكوى والحسرة وبعض القصص المؤلمة وقليلاً من الأحلام السعيدة، وخلفهما مباشرة كانت وردة مستغرقة في قراءة قصة رومانسية وهي جالسة بجانب ابن عمها مهند الذي تناول أدويته المعتادة واستسلم للنوم منذ اللحظة الأولى لإقلاع طائرتهم الخاصة، وفي أقصى مؤخرة الطائرة يجلس رجلان للمرافقة الأمنية وفي الوسط تجلس أربع فتيات مدبرتا منزل فلبينيتان وممرضة إنكليزية إضافة إلى مرافقة خاصة لغزالة وهي فتاة لبنانية تُدعى نيكول تجيد الفرنسية.. والصمت أيضاً.

إحساس ياسمين المرهف وهدؤها الغريب، وحياؤها الشديد الذي ورثته عن والدتها يمنعها عن أي طريقة أخرى للتعبير عن مشاعرها مهما علت أمواجها وبلغت حرارتها، سوى بالكلام، والصمت الحزين إذا أعيتها الحيل، تلتفت إليها أختها غزالة وتسألها:

- في ما تفكرين؟ وما سبب دمع عينيك؟

ـ تذكرت أمي رحمها الله، كم اشتقت إليها، هل تذكرين ابتساماتها وسعادتها ليلة زفافك؟

ـ لا أكاد أتذكر شيئاً سواها، مع أنني لم أختر في هذه الليلة أي شيء إلا إنني أحسست ببعض السعادة لأني سأغادر بيت أبي وأتحرر من سطوته وقسوته، لم أكن أفكر في المكان الذي كنت ذاهبة إليه، بل كنت أحاول نسيان المكان الذي كنت أعيش فيه، كانت الدفوف وأغاني الفتيات وزغاريد النساء تدفعني للتفاؤل وأتخيل الحضن الآمن الذي سوف يعوضني عن سنين الخوف ولحظات اليأس، كنت أستمد بعض سعادتي من عيني والدتي الصابرة والمطيعة.

مسكينة أمي، كانت تتحمل ما يلقاه والدي من إهانات في قصر السلطان، كنا نعرف ما يتعرض له والدي من خلال تصرفاته مع والدتي في البيت، وقلما دخل والدي البيت وهو سعيد أو هادئ، كان صوته يرعبني، وعرفت لاحقاً أنه كان يشعر بالرعب من صوت السلطان وغضبه، كنت أتعجب من حالة أبي، وأتساءل من أين أتى بكل تلك القسوة، والأنانية، والتوتر المستمر، وعندما دخلت قصور أبناء جبران وعشت معهم وأصبحت جزءاً منهم، أدركت السبب، وبطل عجبي.

مسكينة أمي، لم تسمح لنفسها بلحظات سعادة منفردة، كانت تربط سعادتها بسعادة الوالد، تبتسم عندما يبتسم الوالد، وتحزن عندما يغضب الوالد أو يُغضبها، أتذكر ابتسامتها وسعادتها ليلة زفافي، سمعت ضحكتها ورأيت ابتسامتها، يا ألله.. كم كانت جميلة أمي، كأنها لم تضحك من قبل، كنت سعيدة لسعادتها لأني كنت أرى بؤسها وحزنها منذ طفولتي، عندما أسمع صوت والدي أهرب وأختبئ وألوذ بصدر

أمي، لا أعلم من أين لها ذلك الدفء وذلك الحنان مع أنها كانت محرومة من أبسط المشاعر الإنسانية مع زوجها الذي لم أر ابتسامته إلا ثلاث مرات طيلة حياته، أتذكر الأولى وأنا صغيرة عندما قرر السلطان تكليفه بمفاوضة مندوبي الشركة الأميركية لإبرام اتفاقية التنقيب عن الغاز واستلام جزء من قيمة العقد نيابة عن السلطان، وقد منحه مكافأة مجزية، والثانية عندما رزق بشقيقنا عزيز، أول مرة أراه يضحك من أعماقه، كم كان سعيداً، تكاد العاصمة الصغيرة آنذاك تضيق بفرحته الكبيرة عندما بلغه خبر أول مولود ذكر بعد صبر طويل، ليلتها كانت أمي تمازحني بقولها: إن والدك كان ينتظر ابنه الذكر منذ حملي الأول عام ١٩٥٣ إلا أنني خيبت أمله بك. والثالثة عندما عينه السلطان مديراً لمالية السلطنة.

وكنت أتساءل كيف كانت أمي تنام مع والدي على فراش المودة والرحمة «المفترض» في الليل وهي تحمل في طياتها كل مشاعر الحزن المتراكم خلال النهار، والخوف يحاصرها ويسيطر عليها حتى تضع رأسها المشحون بالهموم على وسادتها. هل كانت تحبه أم تخاف منه؟ أم كان مجرد احترام للعلاقة المقدسة؟ لم أجرؤ من قبل على سؤالها، ولكنني أدركت بعض تلك المشاعر بعد زواجي من سهران.

مسكينة أمي، لم يمهلها القدر حتى ترى ابنتها الصغرى في ليلة زفافها، ولم يسمح لها كي تنعم بزواج ابنتها الكبرى الثاني، كنت أتمنى بقاءها لكي أعوضها عن بعض مآسيها، كنت أتمنى بقاءها حتى ترى أول أحفادها وتحمله على يدها، كم أنتِ تشبهينها يا ياسمين، في صمتها، وصبرها، وحنانها، وطيبتها، كما كان شقيقنا عزيز يشبه والدنا في كل شيء، هيئته

وقسوته وأنانيته، حتى طريقة تعامله مع المرأة ومع الحياة كلها، كان يريد أخذ كل شيء مثل أبي، بعكس أمي التي كانت تعطي كل شيء، تمنح الحنان رغم أنها محرومة منه، وتحضن بدفء في بيت نصفه بارد ونصفه قاس، كانت كالنخلة، رغم أنها لا تتلقى الكثير من الماء، ولا تحتاج لعناية خاصة كباقي الأشجار، وتكتفي بالقليل، إلا أنها تحسن إلى كل من حولها سواء كان طائراً في السماء أو سائراً على الأرض، وتوزع خيرها في كل الاتجاهات، شجرة قوية تصمد في مواجهة أعتى الرياح الموسمية والعواصف الرملية، وفي أصعب الظروف وذروة الصيف اللافح تطرح ثمرها، ويلوذ بظلها المسافرون وأصحاب الحاجات... كم اشتقت إليك يا أمي.

ياسمين وبطريقة عفوية تسأل أختها الخبيرة في شؤون الرجال وأحوالهم:

ـ هل صحيح أن لحم الغزال يزيد القدرة الجنسية لدى الرجال؟

ضحكت غزالة من هذا السؤال المفاجئ وربما الساذج:

ـ نعم.. لقد سبق أن قرأت في بعض المجلات عن هذه المعلومة، وسمعت عنها من أكثر من شخص، ولكن لماذا هذا السؤال الغريب؟.

ـ لأني ألاحظ أن شاهين يقضي أغلب وقته مؤخراً في محمية الغزلان التي افتتحها قبل بضعة أشهر بحجة حماية الغزلان من الانقراض، وفي كل يوم تُقدم له ذبيحة كاملة من صغار الغزلان يأكل لحمها في النهار وبشرب مرقها في الليل، ويبدو أن نهاياتها ستكون على يديه وستنقرض كل غزلانها وأنعامها في كرشه.

غزالة تمازح أختها وتسألها:

ـ المهم نتيجة هذا الأكل، هل يثمر أفعالاً مفيدة؟

ـ بعض الكلمات الطيبة فقط بلا فعل، أما الفوائد التي تقصدينها فلا أنال منها شيئاً، أسمع أحياناً أنه يبذلها في الخارج أما أنا فقد دخلت سن اليأس مبكراً.

ـ لو أنهم يبذلون في الداخل نصف ما يبذلونه في الخارج لما وصلنا إلى ما نحن فيه.

فجأة.. توقف الكلام، ربما بسبب الإرهاق، أو لعلها رغبة إحداهما في الانفراد بذاكرتها. توجهت غزالة ببصرها للأعلى تنظر إلى سقف الطائرة وكأنها تناجي نجماً عالياً أو تنتظر نفحة من السماء، أغمضت عينيها لا لتسبح في الفضاء وتحلم بالقمر كباقي النساء العانسات والتائهات على كوكب الأرض بل لتستدعي تلك اللحظات البنفسجية، غزالة تعتقد أنها مميزة أو تسعى دائماً لتكون مميزة، تعلم أنها في هذه اللحظات تسبح في الفضاء ولكنها تشتاق إلى الأرض، كل النساء ينتظرن فارسهن، أما غزالة فهي التي تختار فارسها وهي التي تذهب إليه وتختار أمكنتها، تعشق تلك اللحظات وتعشق تذكرها، كان أول لقاء جسدي بينهما قبل عام كامل، عندما تجرد كل منهما بحقيقته للآخر، تتذكر غزالة ذلك الجسد الممدد أمامها بتقسيماته العضلية المتناسقة، ورائحة الذكورة النفاثة تفتك بما تبقى من صوابها، أدركت في لحظتها أنها قد استعادت نبضها الأنثوي الذي توقف منذ سنين خلف الأبواب المغلقة وتحت وطأة الكروش المنتفخة، لقد سئمت غزالة رائحة العطور وبخور القصور التعيسة والليالي الباردة، حينها سمعت صوتاً يهمس في أذنها.. يحضها.. إنها لحظتك.. اقتربت

منه لتحرق ما تبقى من مسافات ضئيلة، وبحركة لا إرادية مدت يدها نحوه متسللة بأصابعها بين شعيرات بطنه وصدره المبلل بالعرق، وفي لحظة الغياب المطلق مالت عليه بأنفاسها العاتية وصدرها الملتهب وفجأة.. غزيل.. غزيل وصلنا، استيقظت غزالة أو غْزَيّل كما تناديها أختها.. ترد عليها.. الحمد لله على السلامة.

لم تكن غزالة تدرك أن علاقتها بفارس ستصل إلى هذه المرحلة البركانية عندما تعرفت إلى فارس قبل بضع سنوات في أحد مستشفيات لندن وكان يخضع وقتها لإجراء عملية في ركبته التي أصيبت في إحدى المشاركات الرياضية، وكانت هي ترافق زوجها الذي كان يتعالج من روماتيزم المفاصل في نفس المستشفى، وسمعت عنه من إحدى الممرضات وذهبت لزيارته في غرفته، وكان هذا اللقاء بمثابة القطرة الأولى التي استدعت كل المياه الجارفة بعد ذلك.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف بعد الظهر، عندما دخلت الطائرة في المجال الجوي الفرنسي، ما زالت ياسمين تنظر ناحية اليمين من نافذتها، لقد سحرتها تلك المناظر الخلابة بعد لحظات من تجاوز الطائرة للخط المائي الذي يفصل بين ألمانيا وفرنسا، لم تكن ياسمين تدرك وهي تراقب من علو شاهق تلك الوديان والمزارع الخصبة أنها تطير فوق وادي نهر الراين، تبدو مستمتعة بل مبهورة بما تشاهده من سهول ساحرة منبسطة وهضاب مغطاة بالغابات، كانت لوحة طبيعية رائعة بكل المعاني، الطائرة ما زالت تحلّق فوق الإقليم الشمالي بسهوله الخصبة وأنهاره الجارية التي تربط بين شرق الإقليم وغربه مروراً بباريس، كانت الطائرة تدنو من الأرض شيئاً فشيئاً متوجهة إلى منتصف الجزء الشمالي لفرنسا

ناحية ذلك السهل المنخفض المسمى باريس «مدينة النور» وتحديداً إلى شمالها الشرقي حيث أعلن قائد الطائرة الاستعداد للهبوط.

حطت الطائرة في مطار شارل ديغول وكان كبار موظفي السفارة في باريس حاضرين بسياراتهم الرسمية في ساحة المطار ينتظرون توقف الطائرة وفتح الأبواب كما جرت العادة، بل الوظيفة الأولى والأهم في كل سفارات السلطنة في الخارج استقبال أفراد العائلة الحاكمة وتوديعهم والسهر على خدمتهم ورعاية مصالحهم في الخارج، أما المواطن فالاهتمام به يكون عادة بحسب أهميته لعائلة جبران.

نزل الجميع من الطائرة واستقلت غزالة السيارة الأولى مع أختها وفي الثانية باقي المرافقين. وتوجه الموكب إلى فندق جورج الخامس حيث الجناح الملكي المعد سلفاً لإقامة غزالة ومن معها. بعد يومين وصل فارس إلى باريس وكان مرهقاً بسبب تأخر الرحلة عدة ساعات في مطار عاصمة السلطنة وكالعادة مؤسسة الخطوط الوطنية لم تخبر الركاب عن فترة التأخير وسببه، وكان موظفوها يماطلون الركاب ببعض الوعود ويلهونهم بعلب العصير الرديء حتى لا تتحمل المؤسسة أي التزامات مالية أو معنوية، إلا أن فارس علم من صديق قديم يعمل في المطار أن طائرتهم الجاهزة المفترض تحركها في موعدها قد أرسلت مع أحد أفراد العائلة الحاكمة وحاشيته في رحلة صيد، وعليهم الانتظار بضع ساعات حتى تجهز لهم طائرة أخرى.

كانت غزالة حريصة على أن يقيم فارس معها في الفندق نفسه. ورغم أن فندق جورج الخامس لا يبدو كبيراً بحجمه مقارنة بباقي الفنادق العالمية التي تحمل العلامة التجارية نفسها، إلا أنه يتميز

بفخامة استثنائية في الأثاث والخدمة، كما تتجلى أسمى مظاهر الرقة الفرنسية وكرم الضيافة في وجوه العاملات الفاتنات وهن في ابهى هيئتهن، حيث يبادرن نزلاء الفندق بالود والترحاب، ولن تستفيق من هذا الحلم والجو الرومانسي إلا إذا عرفت بالسمع أو البصر أسعار الإقامة لليلة الواحدة في أقل الغرف شأناً، عندها فقط تظهر معان جديدة لكلمات: كثير، باهظ، غالي، حتى على نجم مثل فارس. بادرت غزالة بالتكفل بكل ما يتعلق بحجز الغرفة التي اختارت أن تكون فاخرة أيضاً حتى تليق بها هي أثناء زيارتها له التي يبدو أنها ستتكرر خلال فترة إقامتهما معاً في باريس، بينما شقيقتها ياسمين إضافة إلى متابعة ابنها المريض، تتولى الاهتمام بابنة أختها وردة واصطحابها إلى مدن الألعاب والملاهي التي تحبها إضافة إلى الحدائق العامة.

وفي أول خروج له بعد أيام من الإقامة شبه الجبرية في الفندق، وعلى جادة الشانزلزيه الشهير الذي يعج بالجمال والإبداع الفطري والأنوثة الخلاقة الظاهرة على المقدمات والمؤخرات، استيقظت مشاعر الحسرة والندم لدى فارس على كل جهوده التي بذلها ومشاعره التي خسرها مع تلك المتصابية وقرر توفير ما تبقى من قواه الجسدية والنفسية لتجارب جديدة أكثر متعة وأقل إنهاكاً.

لم يمض أسبوع على إقامته في باريس حتى بدأ فارس يحس بالضعف والتعب، فغزالة لا تمل ولا تشبع، عندها اختلق فارس كل الأعذار التي سمع بها حتى يتمكن من العودة إلى البلاد، فهو مستعد لتحمل كل المتاعب والصعاب التي يمكن تخيلها في بلده الصحراوي إلا أنه لم يعد يتحمل التعب الذي تسببه له غزالة في باريس.

مالك ومازن صديقان حميمان في منتصف العشرينيات من عمرهما، مضى عامان على التحاقهما بقسم الحاسب الآلي بجامعة البوابة وهي المدينة الساحلية الأولى لسلطنة جبران وتبدو مدينة منفتحة اجتماعياً ودينياً وسكانها متسامحون مقارنة بسكان العاصمة وباقي المناطق الأخرى.

حياة الصديقين كأغلب الشباب في البلاد، تتركز اهتماماتهما خارج أوقات الدراسة الجامعية على التسكع في المراكز التجارية والطرقات ومعاكسة الفتيات والسهر مع الأصدقاء في المقاهي والمتنزهات وأحياناً ممارسة الرياضة، وكحال أقرانهما في السلطنة ليس لهما علاقة بالشأن العام ولا بأي نشاط اجتماعي أو سياسي وإذا ما اجتمعا لتصفح مواقع الإنترنت تنحصر متابعاتهما في كل ما يتعلق بالجنس والموسيقى والأفلام الأميركية وأحياناً المواقع

الرياضية، وهذا هو الوضع المثالي بالنسبة لعائلة جبران التي يحرص كبراؤها على إبعاد الشباب بل الشعب كله عن الشأن العام خاصة قضايا الحكم والسياسة، وأبناء جبران مثل أبيهم يرفضون مشاركة المواطن في شؤون السلطة والثروة ولو بالسؤال فقط.

مالك لديه سيارة جديدة وفخمة اشتراها له والده القاضي عساف الذي يملك العديد من الأراضي والعقارات إضافة إلى أرصدته المالية الضخمة في البنوك، وكل هذه الثروة جمعها الشيخ عساف خلال عمله في القضاء ولا يُعرف لها مصدر قانوني معين. أما صديقه مازن، فسيارته قديمة وصغيرة ووالده موظف قديم في إدارة الصحة العامة ولم يبق على تقاعده الوظيفي إلا بضعة أشهر وليس له دخل آخر غير راتبه الذي يذهب نصفه لتسديد فواتير العلاج والخدمات العامة والرسوم الحكومية التي يتفنن أبناء جبران في اختراعها وزيادتها كل بضعة أشهر، ولذلك بالكاد تمكن طاهر والد مازن من امتلاك بيت صغير لأسرته بعد أكثر من ثلاثة عقود من الخدمة في حكومة آل جبران.

وفي الوقت الذي يضطر فيه أفراد شعب السلطنة إلى دفع كل ما يملكون على قلته، ويعانون الويلات لإيجاد سكن مناسب لهم ويقضون السنين الطوال يجمعون ويقترضون الأموال حتى تتمكن العائلة المتوسطة الحال من شراء أو بناء بيت صغير لها، تستولي العائلة الحاكمة على مساحات كبيرة ومتعددة في كل مكان في السلطنة كما يمتلك أصغر أمير أكثر من بيت في عدة مدن إضافة إلى تمتعه بمزايا اجتماعية وطبية وأمنية خاصة ومستدامة لا تتأثر

بالأزمات الاقتصادية الداخلية ولا الخارجية. وبحكم نفوذ زوجها سهران وسلطته الواسعة تمتلك غزالة عدداً من القصور والعقارات الاستثمارية داخل السلطنة وخارجها، ورغم أن قصرها في مدينة البوابة أصغر حجماً من قصرها الأول في العاصمة إلا أنه يتميز عنه بفخامته الداخلية وبإطلالته العِلوية على البحر، وقد بُني هذا القصر على شكل مربع يحده شارعان متوازيان من الشمال والجنوب، وكذلك من الغرب شارع رئيس يفصله عن شاطئ البحر، وفي الجهة الشرقية حديقة عامة جميلة بنفس مساحة القصر تفصلهما أرض واسعة تستخدم مواقف للسيارات، نصفها الملاصق للقصر يستخدمه حراس الأمن والنصف الآخر مخصص لمرتادي الحديقة، والقصر محاط بسور عالٍ وسميك ورصيف عريض يفصله عن المساحات المجاورة، ترتبط الحديقة بالقصر من الناحيتين الشمالية والجنوبية برصيفين متوازيين يمتدان بين الغرب والشرق والعكس، وغالباً ما يُشاهد المتنزهون وأكثرهم من النساء وهم يسيرون على هذين الرصيفين انطلاقاً من ناحية الحديقة وحتى القصر والعودة بالعكس.

تعوّد مالك ومازن قضاء أغلب يوم الخميس من كل أسبوع خارج منزلهما يتناولان خلاله طعام الغداء في أحد المطاعم المشهورة بالأكلات السريعة ثم التوجه لأحد المقاهي على شاطئ البحر وفي المساء يحين موعد الأسواق التجارية ومعاكسة الفتيات، ومع مغيب شمس ذلك اليوم الصيفي كان مالك يقود سيارته الجديدة متوجهاً ناحية البحر وبجانبه صديقه مازن، وخلال مرورهما بجانب الحديقة التفت مازن ناحية اليمين فشاهد على الرصيف الواصل بين الحديقة والقصر فتاتين تتمايلان أثناء سيرهما وتتضاحكان بطريقة مثيرة فلفت ذلك انتباه مالك الذي كان يقود

السيارة، فقرر الدوران حول القصر والعودة من بداية الطريق ليدخل إلى المسار الفرعي المحاذي لرصيف المشاة حتى يستطيع هو وصديقه ممارسة هوايتهما مع الفتاتين عن قرب، وفي كل مرة يعود فيها لنفس المكان يجد فتيات أخرياتٍ يسرن على نفس الرصيف فيزداد مالك إصراراً على مواصلة الكَرة مرة أخرى لعله ينجح في لفت نظر أكبر عدد منهن ليتمكن من التحدث إليهن وتبادل أرقام الهواتف.

ورغم أن القصر كبير وفخم إلا أنه لا يبدو متميزاً كثيراً عن غيره من القصور المجاورة التي يمتلكها في الغالب أفراد عائلة جبران وبعض المقربين والأثرياء، ولأن غزالة بحسب عادتها السنوية في مثل هذا الوقت لم تكن متواجدة في القصر، فإن حراس القصر يكتفون بالتمركز في الداخل ويراقبون الحركة الخارجية عن طريق كاميرات تلفزيونية موزعة على أركان القصر بطريقة تغطي كل المساحات المجاورة للقصر من جهاته الأربع.

ومن سوء حظ الصديقين أن فصل الربيع في هذا العام بالذات شهد أحداثاً وتهديدات أمنية من جماعات إرهابية تستهدف شخصيات حكومية في البلاد ولذلك كان الاشتباه في حركة سيارة مالك أمراً طبيعياً حتى وأن لم تكن زوجة وزير الأمن في القصر. كاميرات المراقبة سجلت دوران سيارة مالك ثلاث مرات حول القصر إضافة إلى توقفه قرب البوابة الجنوبية أكثر من مرة بنحو لافت، والمعلومات المتوفرة لدى الأجهزة الأمنية تؤكد أن هناك تهديدات محتملة لشخصيات أمنية وكذلك بعض المتنفذين في الأسرة الحاكمة، ولذلك كان الاشتباه في تنفيذهما مهمة مراقبة واستطلاع للمكان تهيئة لعملية إرهابية، فاعتقل مالك

صاحب السيارة ورفيقه مازن بعد التبليغ عن السيارة بأربع وعشرين ساعة، وبدأ التحقيق معهما وسؤالهما عن سبب تواجدهما المتكرر حول القصر؟ وما هو الدافع لمراقبتهما له؟ ومنذ متى؟ ولحساب من يعملان؟ استمرت التحقيقات شهراً كاملاً في مركز التحقيق السياسي، ولأن القضية متعلقة بأمن زوجة الوزير سهران لم يسمح لأقربائهما بالسؤال عن مصيرهما فضلاً عن قبول الشفاعات للإفراج عنهما، كما أن المحققين لم يقتنعوا بالإجابات التي قدمها مالك ومازن والتي ذكرا فيها أن معاكسة الفتيات وملاحقتهن كان السبب الوحيد في تواجدهما في تلك المنطقة وحول القصر تحديداً، وكان المحقق بعد مراجعته لما سجلته كاميرات المراقبة قد اقتنع أن المعاكسات والتصرفات الطائشة التي قاما بها في الشارع لم تكن أكثر من محاولة لصرف الأنظار والتغطية على مهمتهما الرئيسة.

وُضع الصديقان رهن الاعتقال في غرفتين منفصلتين ملتهبتين بحرارة الصيف والخوف، مما جعل من هذه الحادثة الطارئة بداية لتجربة جديدة ومرعبة في آن واحد، وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال عن الحد الممكن لتأثير تلك التجربة أو عن شكل هذا التأثير ونتائجه على مستقبل أي شاب في مقتبل العمر.

لم يخطر ببال ابن القاضي أو صديقه اللذين لم يتعرضا خلال حياتهما السابقة لأي عقوبة حتى وإن كانت مرورية أنه سيأتي يوم يتعرضان فيه لورطة سياسية أو أمنية لا ناقة لهما فيها ولا جمل.

بعد شهر من التحقيقات شبه اليومية تم تحويل الصديقين من مركز التحقيق إلى السجن السياسي حيث وُضع مالك في زنزانة رقم ٧ وكان فيها شابان أحدهما في العقد الثالث من عمره

والآخر في العقد الرابع وتهمتهما تجنيد وتمويل عمليات إرهابية بحسب الوصف الرسمي، أما مازن فقد وضع في زنزانة رقم ١٠ وكان فيها أربعة شبان تتراوح أعمارهم بين ٢٥ و٣٥ سنة متهمين بتنفيذ عمليات إرهابية أو جهادية كما يصفونها ضد مقيمين غربيين وشخصيات أمنية محلية.

زنزانة ٧

المعتقل سالم وكنيته «أبو الوليد» يبلغ التاسعة والثلاثين من عمره، أحد المقاتلين السابقين في الشيشان، بهدوء، والابتسامة بادية على وجهه اقترب من مالك المنطوي على نفسه في ركن الزنزانة: السلام عليك أخي الكريم.

لم يرد عليه مالك السلام، لعله لم يسمعه أو لم يشعر بوجوده أصلاً.

أبو الوليد في محاولة أخرى:

ـ أنا أخوك أبو الوليد وذاك النائم، يشير بإصبعه ناحيته، الأخ أبو دجانة.

ـ رفع رأسه بتثاقل اليائس المرعوب، خير؟

أبو الوليد مبتسماً، يذكره مرة أخرى باسمه:

ـ أنا أخوك أبو الوليد.

ـ وأنا مالك.

يصمت برهة وكأنه يستحضر شعوره بمحيطه الجديد، ينظر إلى وجه أبو الوليد، يردد الكلمة المعتادة: الله يستر.

ـ هوّن عليك، مهما كانت قضيتك ستكتشف أنها تافهة مقارنة بقضايا المعتقلين هنا، فكر برضا الخالق لكي تهون في قلبك مصائب الخلق.

أبو الوليد يواصل تودده لمالك:

ـ لا يبدو أنك من الإرهابيين، يستدرك ضاحكاً: طبعاً الذين يرهبون أعداء الله وأعداء الأمة، على كل حال إذا أردت الحديث عن مشكلتك فستجدني من المنصتين.

وبابتسامة نادرة في تلك الأماكن:

ـ نحن هنا إخوة، وهمّنا واحد.

مالك ما زال مذهولاً:

ـ تصدق، أنا متهم مع صديقي مازن في قضية إرهاب!

ـ معقول! كيف حصل ذلك؟.

ـ قضيتنا بدأت بمعاكسات وانتهت بإرهاب.

ثم بدأ يحكي لأبي الوليد قصته منذ أن رأى الفتيات حول القصر حتى إلقاء القبض عليه والتحقيق معه.

أبو الوليد مداعباً رفيقه الجديد:

ـ فيهم الخير، يبدو أنهم مصرّون على تشريفك بالإرهاب، وتكليفك بمهمة مواجهة الفساد رغماً عنك. لم يدرك مالك المعاني البعيدة لتلك الجملة.

لم يختلف الحال كثيراً مع مازن في زنزانته. الحوارات تتشابه

كما تشابهت الظروف ومشاعر الخوف والألم والكراهية.

زنزانة ١٠

كانت أصغر حجماً من زنزانة ٧ وفيها أبو عبيدة النجدي وأبو هاشم اليمني وأبو جهاد الغزاوي، وأكبرهم أبو سعيد السلفي في الخامسة والثلاثين من عمره، كان ضمن الذين قاتلوا في معركة ولاية «كونر» الأفغانية عام ١٩٩١ بين الحزب الإسلامي «حكمتيار» وجماعة الدعوة إلى القرآن والسنة «جميل الرحمن».

كالعادة تفتح أبواب الزنازين يومياً الساعة الرابعة والنصف فجراً لمدة ساعة، وكالعادة أيضاً أول من يستيقظ هو أبو سعيد ليذهب للوضوء، وبعد عودته يوقظ زملاءه الثلاثة في الزنزانة، استيقظ الجميع إلا هذا الشاب الغريب النائم كالجثة الهامدة، نظر أبو سعيد إلى أبو هاشم وبصوت منخفض:

ـ من هذا؟.

ـ إنه معتقل جديد أحضره الجنود في ساعة متأخرة من الليل وكانوا يسحبونه كالخروف ثم رموه كسجادة بالية عند باب الزنزانة من الداخل وانصرفوا، ويبدو أنه لم ينم منذ أيام.

فشلت كل محاولات أبو سعيد التي بذلها ليوقظ صاحبهم الجديد، انصرف مسرعاً للحاق بأصحابه الذين سبقوه لصلاة الفجر في مصلى السجن ثم عاد مسرعاً، كان مشغولاً بهذا الشاب العشريني، حاول مرة ثانية وثالثة حتى بدأ مازن في الاستجابة، فتح عينيه وحرك جسمه النحيل، رفع رأسه وجلس مستنداً بظهره إلى حائط الغرفة، كانت الساعة الخامسة وعشر دقائق، يبادره أبو سعيد بالحديث:

ـ يا أخ، كيف حالك؟ هل تشتكي من شي؟ أنا أخوك أبو سعيد.

مازن يحسس على جسمه ويتمتم بصوت مسموع:

ـ الحمد لله إنني ما زلت حياً.

ورغم أنه بدا من الناحية النفسية أكثر صلابة من صديقه إلا أن الإنهاك الجسدي ظاهر على وجهه وجسده ويحتاج إلى فترة طويلة لتعويض أيام السهر والقلق التي عانى منها خلال التحقيق.

ـ قبل كل شيء يجب عليك الإسراع بالذهاب إلى الحمام والوضوء للصلاة، لم يبق أمامك إلا عشرون دقيقة بعدها لن تفتح الزنزانة إلا فجر اليوم الثاني، نلتقي بعدها لنواصل الحديث.

ـ نعم، أشعر أني بحاجة ماسة لدورة المياه، سأسرع بالذهاب.

الساعة السادسة كان الجميع في الغرفة ينتظرون موعد الإفطار بعد ساعة، الغزاوي والنجدي عادا إلى النوم واليمني بدأ يقرأ القرآن، أما أبو سعيد فقد جلس بجوار مازن وبادره بالحديث ليعرف مشكلته التي جاءت به إلى هنا.

ـ بعد ساعة تقريباً يحين موعد الإفطار داخل الزنازين وبعد ذلك يمكنك مواصلة النوم كما تريد، والى ذلك الوقت أريدك أن تحكي لي عن سبب وجودك هنا.. إن أردت.

ـ إلى قبيل التحقيق بدقيقة لم أكن أعرف عن سبب اعتقالي مع صديقي مالك.

ـ لقد سمعت البارحة عن دخول معتقل جديد إلى زنزانة ٧ هل هو مالك الذي تقصده؟.

ـ نعم إنه صديقي مالك الذي لم ألتق به منذ اعتقالنا، كنا

نعاكس فتيات قرب أحد القصور كما يفعل أكثر الشباب، ثم انصرفنا ولم نكن نعلم أنه قصر عائلة وزير الأمن، ونحن الآن متهمان بالتخطيط لأعمال إرهابية.

ـ ها ها ها.. معقول؟.

ـ نعم تلك الأفعال المضحكة قادتنا لهذه النتيجة المبكية.

ـ لكن لماذا أنتم بالتحديد؟ وكيف عرفوكم؟.

ـ لأن صديقي مالك، الله يهديه أصر على تكرار المحاولة والدوران حول القصر على أمل أن تستجيب الفتيات للحديث معنا بعدما فشل كل سائقي السيارات الذين كانوا يحاولون لفت نظر الفتيات إلا أنهم يئسوا من أول محاولة أو أنهم لم يهتموا كثيراً بالفتيات كاهتمامنا وانصرفوا من أول دقيقة.

ـ سبحان الله، هل تعلم أنك الآن معتقل في غرفة واحدة مع شباب مجاهدين، بعضهم قاتل في أفغانستان وبعضهم في الشيشان والبوسنة، وفي العنابر الأخرى إصلاحيون سياسيون وكتّاب.. ويضيف مبتسماً... وأنت كنت تغازل! آه لو تعرف قصة أخينا ناصر «أبو عبيدة»، ذاك النائم على يسارك دخل السجن ليس لأنه إرهابي، كحالتنا، بل لأنه ابن ناشط سياسي، قطعاً ستختلف كل الألوان أمامك وتعيد النظر بكل الأسماء والصفات التي تعودت سماعها في الخارج، على أية حال.. لعل الله أراد لك الخير، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

مازن يشعر براحة نفسية وبرغبة في مواصلة الحديث ويسأل أبا سعيد:

ـ وأنت ما هي قصتك؟.

ـ في أواخر الثمانينيات وأنا في مثل عمرك كنت منضماً إلى الأنصار العرب في أفغانستان. كنا نقاتل أحياناً إلى جانب حزب سياف وأحياناً إلى حزب رباني وبعضنا كان مع حكمتيار، وكان عدونا واحداً: الشيوعيون وأعوانهم، وعندما بدأ الشيخ جميل الرحمن يُكون جماعته السلفية في «كونر» انضممت إليه مع مجموعة من المجاهدين الأنصار، وقد نجح السلفيون في هزيمة قوات حكمتيار وإجباره على الانسحاب من ولاية كونر التي أصبحت تحت سيطرة الجماعة التي كانت تعمل بدعم من شيوخ «المدينة» على إقامة إمارة إسلامية بمنهج سلفي، وخلال بضعة أسابيع نجح حكمتيار في تأليب بقية الفصائل الأفغانية وأقنعهم بالانضمام إليه لاسترجاع ولاية كونر من أيدي الوهابيين «المحارَبين تاريخياً في أفغانستان»، استمر الحصار الذي فرضته الفصائل الأفغانية حول ولاية كونر ومن فيها من السلفيين لعدة أيام، وكان زعماء التحالف الأفغاني قد عقدوا العزم على استرجاع الولاية واستسلام من فيها مهما كلف الأمر، وقد فشلت كل الوساطات في التقريب بين المتحاربين دون هزيمة طرف دون طرف، وكنتُ ضمن المجموعة التي اختارت الاستسلام مبكراً والخروج سالماً من هذه المعركة فلا مصلحة لي في حرب بين الأفغان، ولأني كنت أراها فتنة بين الأفغانيين فلن أخسر شيئاً من الانسحاب ولن أكسب شيئاً من البقاء، خاصة أننا أصبحنا نواجه الموت بلا معين وقد انقطع عنا المناصرون، حتى أولئك الشيوخ الذين تربطهم بالشيخ مدرسة ومصلحة واحدة المشهورون في الجزيرة العربية باسم «الجامية» المقربون من المؤسسات الأمنية، لم يقدموا لنا إلا الدعاء وبعض التصريحات والبيانات المنشورة التي تلعن الإخوان والرافضة والقبوريين.

ـ وهل بقي أحد يقاتل في الداخل؟

ـ نعم، اختارت مجموعة من العرب السلفيين مناصرة إخوانهم الأفغان لكن للأسف التحالف «الإخواني الديوبندي» كان الأكثر عدداً وعدة، لقد استولوا على الولاية وقتلوا كل السلفيين في الداخل.

ـ وماذا حصل بعد ذلك، هل انتهت المشكلة؟.

ـ نعم انتهت، لكن بعد بضعة أشهر عندما أرسلوا شاباً مصرياً اسمه أشرف قبل صلاة الجمعة لينفذ عملية اغتيال الشيخ جميل الرحمن.

ـ وماذا عن قصة «أبو عبيدة» التي ذكرتها سابقاً؟.

ـ الأفضل أن تسمعها منه شخصياً عندما يستيقظ.

الساعة تشير إلى السابعة صباحاً، حان موعد الإفطار، أبو سعيد ينهي حديثه بقوله: للحديث بقية، كل نزلاء الزنازين يتناولون الطعام في هذا الوقت، اجتمع الخمسة على طعام الإفطار، كان مازن يفكر بين كل لقمة وأخرى في ذلك العالم الغريب الذي لم يعرفه من قبل، يبدو أنه دخل حياة جديدة، نسي مازن أن أبو سعيد لم يخبره سبب اعتقاله، ولكنه ما زال متذكراً، بل متشوقاً لسماع قصة الشاب النجدي، نظر إلى أبي سعيد وكأنه يذكره بما دار بينهما، بادر أبو سعيد بالحديث:

ـ يا أبا عبيدة.. أخونا مازن يريد أن يسمع قصتك التي أدخلتك السجن، أليس كذلك أخ مازن؟.

ـ نعم بكل تأكيد، وأتمنى أن لا يكون لديه مانع.

ـ مع أنها ذكريات مؤلمة بالنسبة لي إلا أنني كلما تذكرتها

أزددت يقيناً بعدالة السماء، وتفاصيلها تؤكد في داخلي أن العمل على إقامة العدل في حياتنا مقدم على مُظاهرتنا بشعائر الدين.. كان والدي ناشطاً سياسياً، كنت أسمع أنه ينتمي للتجمع الوطني للإصلاح، وكنت وقتها أدرس في الصف الثالث إعدادي «متوسط» ولم أكن مهتماً بهذه الأسماء وبالأحرى لم أكن مدركاً لكل القضية، وقبيل الفجر من ليلة الخميس اقتحمت مجموعة من جهاز أمن الدولة منزلنا، كانوا عنيفين مع والدي يرحمه الله، لقد أفزعتني أصواتهم المزعجة وحركتهم الفوضوية أثناء بحثهم في الأغراض والمتعلقات الشخصية لوالدي، استيقظت من النوم وخرجت من غرفتي، رأيتهم ينتشرون في المنزل ويفتشون في كل شيء، عندما رأتني والدتي طلبت مني العودة إلى الغرفة، وقبل أن أغلق باب غرفتي توجه ناحيتي رجلان ودفعاني بقوة بعيداً عن الباب ودخلا غرفتي ليفتشا فيها. كنت مرعوباً، سمعت الضابط يهدد أمي بتعريتها من ملابسها إن هي استنجدت بجيرانها أو رفعت صوتها. بعد ساعة من العبث في بيتنا وأثاثنا وفي قلوبنا أيضاً، غادرت المجموعة الأمنية المنزل ومعهم والدي، لقد أخذوه بعد ضربه وإهانته أمامنا.

ومنذ تلك الليلة لم أره إلا مرة واحدة خلال ثلاث سنوات قضاها في المعتقل، مع أن والدي لم يكن معارضاً للنظام السلطاني ولا إرهابياً، ولم يدع إلى العنف، ولم يكن سارقاً للمال العام ولا مرتشياً ولم يكن مهرباً للمخدرات ولم يتاجر في السلاح ولم يحمله قط، جريمته أنه كان يدعو للإصلاح السلمي، وكنت اسمعه دوماً يردد «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت».

ـ معقول مرة واحدة خلال ثلاث سنوات، لماذا؟ هل كان المانع شخصياً أم رسمياً؟

ـ كانت تلك المرة وأنا في الصف الأول ثانوي أي بعد سنة تقريبا من اعتقال والدي، عندما زرته مع والدتي كنت أشاهد كل آلام جسده وأوجاع نفسه في عينيه الذابلتين، لم تقنعني كل محاولاته للتظاهر بالقوة والعافية، كان مهتماً بالاطمئنان إلى صحتي ودراستي، يوصيني برعاية والدتي.. «يا ابني أنا ومن معي محبوسون لكي نحافظ على حقوقكم ونضمن لكم حياة كريمة، نحن هنا في الداخل ندفع ثمن كرامتكم في الخارج، هل تفهم معنى كلامي؟».

رغم عدم استيعابي لكل كلماته إلا أنني كنت متيقناً من براءته وأنه معتقل بسبب آرائه وكتاباته وليس لسبب أخجل منه أمام الناس، وهذا ما كانت أمي تردده على مسامعي، في تلك الزيارة بدا الوالد موجوعاً ومتألماً من شيء آخر غير الآلام التي يجدها المسجون عادة حين يبتعد عن أهله ويفقد حريته، كان يصفه بالملعون والمجرم والضال عندما كانت والدتي تسأله عن تعامل الجنود والضباط معهم داخل السجن، لم أكن أدرك من هو المقصود بتلك الأوصاف.

كانت الزيارة الثانية بعد شهرين. ذهبت مع والدتي إلى السجن السياسي، مكثنا في غرفة اللقاءات الأسرية لمدة ساعة ننتظر دخول والدي إلا أنه لم يأت، بعد عشر دقائق جاء جندي يخبر والدتي أن الزيارة مخصصة للزوجة فقط، وعليها أن تختار بين مقابلتها للوالد بمفردها وبين تأجيلها للمرة القادمة، رضخت والدتي للتوجيهات الجديدة وطلبت مني الانتظار خارج الغرفة

حتى تتمكن من مقابلة والدي، لأن الزيارة التالية موعدها بعد شهرين.

بعد عودتنا إلى البيت سألتُ والدتي عن سبب رفضهم لوجودي، فقالت لي إن والدي أخبرها أنهم يريدون الضغط عليه بواسطتي للتوقيع على اعترافات ملفقة وتعهد بعدم تكرار مواقفي السابقة، إلا أنه رفض وطلب مني عدم اصطحابك معي في المرات القادمة حتى لا يستخدموك ضده.

كانت إدارة السجن تسمح له بمكالمة هاتفية لمدة ثلاث دقائق كل ثلاثة أشهر، كانت هذه الطريقة الوحيدة إضافة إلى ما تنقله لي والدتي، لكي أتابع حالة والدي وأطمئن إليه لمدة سنتين حتى صدر قرار السلطان مرطان بالإفراج عن سجناء الضمير ودعاة الإصلاح تنفيذاً لتوجيهات الإدارة الأميركية التي كانت تتعرض لضغوط داخلية بسبب دعمها لنظام شمولي رجعي كما تصفه تقارير حقوق الإنسان الغربية.

كنت وقتها في السنة الأولى الجامعية عندما أفرج عن والدي، كان والدي بكامل صحته عندما دخل السجن على قدميه قبل ثلاث سنوات، والآن يخرج محمولاً على كرسي متحرك. عرفت منه أن الشخص الذي كان يلعنه ويصفه بالإجرام هو العقيد مسعود مسؤول التحقيقات السياسية وقتها. بعد شهرين من خروجه ساءت حالته الصحية ولم يعد قادراً حتى على الكلام، كنت حريصاً على معرفة تفاصيل ما حصل له داخل السجن، كان والدي يخاطبنا بعينيه، وكنت أشعر بما يشعر به من قهر وألم ولكني أجهل تفاصيل ما وقع له داخل السجن حتى أخبرتني والدتي عن العم حسين الطيب الذي خرج مؤخراً من أحد المراكز

الطبية حيث أنهى برنامجاً لعلاج عموده الفقري الذي أصيب بتشوهات داخل السجن.

كان الطيب من الأصدقاء المقربين لوالدي منذ المراحل الدراسية، ومما عرفته من والدتي أن لهما الاهتمامات السياسية نفسها، وقد اعتقلا في الأسبوع نفسه، إلا أن الطيب خرج من السجن قبل والدي بثلاثة أشهر لأنه وافق على كتابة تعهد بعدم العودة للنشاط السياسي بينما رفض والدي التوقيع على أي تعهدات أو التزامات.

قام العم حسين بعد يومين من خروجه بزيارة والدي وكان كل منهما سعيداً برؤية رفيق شدته، كان والدي صامتاً يومئ برأسه في أحسن الحالات، وكان صديقه يواسيه مرة ويُضحكه مرة ويذكره ثالثة بقصص ومواقف قديمة.

بدا الوالد في أسعد لحظاته، ولولا إصابة نصف وجهه بالشلل لرأينا ابتسامة أعرض وأكثر إشراقاً كما كنت أتمنى وبالتأكيد كما كان هو يتمنى. بعد ليلتين أصيب والدي بجلطة دماغية مفاجئة كان الطبيب يحذرنا منها، مات على أثرها قبل أن يصل إلى المستشفى. في الأسبوع الثالث بعد الوفاة ذهبت لمنزل العم الطيب:

- يا عم حسين أريد معرفة ماذا حصل لوالدي رحمه الله داخل السجن؟ ما الذي أوصله لهذه المرحلة الصحية والنفسية المتأخرة عن كل زملائه في السجن كما فهمت منك.

- يا ابني يا ناصر.. لن تستفيد شيئاً لو عرفت، ولن تتمكن من تغيير أي شيء، الذي حصل لنا كلنا أصبح من التاريخ، وقد احتسبناه عند الله، ووالدك الآن عند العدل سبحانه.

ـ على الأقل ترتاح نفسي، الأسئلة المحيرة تؤرق حياتي، وحزني على والدي يشعرني بالقهر واليأس من هذه الحياة.

ـ الشخص المتسبب في وضع والدك السيئ لم يعد في منصبه، هو الآن خارج الخدمة، تقاعد منذ بضعة أشهر.

ـ تقصد العقيد مسعود؟.

ـ نعم إنه الإرهابي مسعود، كان قاسياً في تعامله مع كل السجناء خاصة مع والدك لأنه لم يكن يطيعه أو يوافقه في كل ما يريد، كان مسعود يبغض والدك لأنه معتد برأيه ومتمسك بمبادئه، وهذا لا يعجب رجال السلطة.. هل ارتحت الآن؟

ـ لن أرتاح حتى أقابله وأسأله عن سبب معاملته لوالدي بتلك الطريقة ولمصلحة من، أريد أن أعرف هل ضميره مرتاح بعد كل الجرائم التي ارتكبها.

ـ تشبه والدك في كل شيء. لست مضطراً لمثل تلك التصرفات، يا ابني لا تورط نفسك في مشاكل مع السلطة.

ـ اطمئن يا عم حسين.. أنا لا أؤمن بالعنف ولا بالانتقام ولن ألمسه حتى، فقط أريد أن أتحدث معه وأنظر إلى عينيه.

بعد بحث مستمر وسؤاله في المنطقة التي وصفها له صديق والده، توصل ناصر إلى عنوان الشركة التي يديرها مسعود العقيد السابق الذي أصبح رجل أعمال بعد تقاعده، دخل السكرتير على مسعود في مكتبه:

ـ يا شيخ مسعود.. في الخارج شاب يقول إنه ابن صديق قديم ويريد مقابلتك.

ـ ألم يخبرك باسمه؟.

ـ يقول إن اسمه ناصر.

ـ طيب.. أدخله ولكن بعد أن تخبره أني مشغول حتى يختصر في كلامه.

ـ ألست العقيد السابق مسعود؟.

ـ نعم، تفضل.. من أنت؟.

ـ أنا ناصر ابن عبد الرحيم الشامر المعتقل السابق لديك.

بمجرد سماع الاسم تغير وجه مسعود، وانتفض من مقعده، يبدو أن اسم سجينه السابق ما زال عالقاً في ذاكرته:

ـ لا أذكر هذا الاسم، هل تحتاج إلى مساعدة؟.

ـ والدي توفي بعد معاناة نفسية وجسدية نتيجة أفعالك وتصرفاتك معه داخل السجن ولا بد من محاسبتك على الأقل بالكلام.

ـ يبدو أنك مجنون، وأنا مشغول ولا وقت لدي لمثل هذه القصص، يا سامي.. يا سامي، أخرج هذا المتخلف من هنا، وبلغ عنه مكتب الأمن، اسمه ناصر بن عبدالرحيم، هم سيتولون باقي الإجراءات.

ما زال ناصر مصراً على موقفه، يريد إجابة مباشرة من سجان والده، إنه مثل أبيه لا ييأس أو يستسلم، معرفة عنوان مكتبه وحديثه بتلك القوة أرعبت مسعود وجعلته يظن أن الابن جاء للانتقام... توقف أبو عبيدة عن الحديث ليتناول كوب الشاي من يد أبو سعيد، يبدو أنه انسجم مع القصة وظل يتحدث حتى شارف الطعام

على النفاد، بعد تناوله بعض اللقيمات المتبقية استأنف قصته:

- استدعيت إلى إدارة الأمن السياسي.. وبعد التحقيق معي طلبوا مني تعهداً بعدم التعرض أو ملاحقة مسعود فكتبت التعهد حتى أتخلص منهم، وبالفعل توقفت عن ملاحقته، إلا أنني قابلته قدراً أو كما يقولون صدفة في أشهر المستشفيات الخاصة وكانت معه ابنته الصغيرة، كنت خارجاً من غرفة الأشعة مع والدتي ولمحته يدخل من باب المستشفى فطلبت من والدتي الجلوس في غرفة الانتظار ولحقت به، من أول نظرة في وجهي سحب ابنته من يدها وخرج مسرعاً متوجهاً لمواقف السيارات، وأثناء عبوره الشارع صدمته سيارة مسرعة يقودها شاب متهور، أصيب هو مباشرة أما الطفلة فكانت إصابتها أقل خطورة رغم الكدمات الكثيرة في جسمها، توفي العقيد مسعود وهو في طريقه إلى المستشفى، وألقي القبض علي بتهمة التسبب في الحادث، بناءً على ما ذكره أشخاص كانوا في مكان الحادث شهدوا بأني كنت ألحق به، ولأن العقيد مسعود من المخلصين المقربين لسيده ما زلت معتقلاً هنا.

- قضيتنا أنا ومالك لا تختلف كثيراً عن قضيتك فكلنا دخلنا السجن بلا جريمة، الفرق أنك كنت تحمل همّ غيرك ولك قضية، ونحن لم نكن نحمل أي هم ولم نكن نفكر إلا في لحظتنا.

.

استمع الصديقان كلٌّ في محبسه إلى حكايات يتناقلها زملاؤهما في زنازين الجهاديين توصف عادة بأنها كرامات ودلائل إلهية في

ساحات القتال، كما سمعا قصصاً أخرى عن أهوال التعذيب الذي يمارسه المحققون في سجون آل جبران بحق المقاتلين الأصوليين والمعتقلين السياسيين وقد تأكدا من بعضها بشكل مباشر وغير مباشر. وفي مقابل الحرب التي كانت تخوضها سلطنة جبران مع التحالف الدولي ضد الإرهاب الأصولي كان الصديقان قد شارفا على الاقتناع بالفكر الذي يدعو إلى مواجهة أنظمة الكفر والاستكبار العالمي وأعوانها في المنطقة الآسيوية.

في جلسة لاحقة أكمل أبو سعيد لزميله الجديد قصة خروجه من كونر وانضمامه للحرس الشخصي للشيخ ذو الفقار ثم لجوئه لإيران مع مجموعة من الجهاديين المستهدفين دولياً. بدا مازن منبهراً بتفاصيل الأحداث التي واجهها أبو سعيد وباقي الجهاديين الشرق أوسطيين في مراكز الحرس الثوري وبيوتهم، وكيف جرت عملية تسليمه مع بعض مواطنيه لاحقاً إلى سلطات بلاده ضمن صفقات أمنية كان الأميركان طرفاً فيها.

خلال الشهر الثاني من الاعتقال والذي يصادف دخول شهر رمضان من عام ٢٠٠٣ طرأ تحسن ملموس على ظروف اعتقال مالك ومازن حيث تباعدت استدعاءات التحقيق وأصبحت كل أسبوع أو أسبوعين، كما سُمح لوالدي مالك ومازن بمقابلتهما بعدما استجابت إدارة السجن لطلب مازن بالانضمام إلى صديقه مالك في زنزانة ٧ الواسعة وطلب منهما المحقق محاولة التأثير على أبنيهما لتقديم معلومات أو أسماء تفيد التحقيق مع وعد بإمكانية الإفراج عنهما في أقرب وقت، إلا أن مالك ومازن لم يضيفا شيئاً جديداً ولم يقدما معلومات تفيد التحقيق لأنهما ببساطة لا يعرفان شيئاً ولا علاقة لهما بكل ما يدور حولهما، ولم

يكن لهما اهتمامات بما يحصل في المجتمع أصلاً.

وفي ذات الفترة وبعد شهرين من الإقامة الصيفية في باريس، عادت غزالة لتقضي شهر رمضان في العاصمة، وكعادتها السنوية تشارك في مناسبات دينية واجتماعية محددة مسبقاً ومن أبرز تلك المناسبات رعايتها لحفل تخرج مجموعة من فتيات الدراسات العليا في كلية العقيدة والدراسات الإسلامية بجامعة العاصمة، وكانت تترأس عمادة الكلية فيها الدكتورة صالحة ابنة رئيس الهيئة القضائية العليا في البلاد وطليقة عزيز شقيق غزالة، وصالحة إضافة الى ارتباطها الوثيق بغزالة على المستويين الشخصي والأسري فإنها تشبهها كذلك في النزوع إلى الثورة على الضوابط الاجتماعية وتخطي حواجز العادات والأعراف المحلية وفي تناقضاتها أيضاً.

بعد الافتتاح بآي من القرآن الكريم، كانت الكلمة الأولى حسب البروتوكول لراعية الحفل السيدة غزالة التي باركت للمتخرجات وشجعتهن على الاستمرار في البحث العلمي وأثنت على تمسكهن بعاداتهن واحتشامهن ودعتهن للمساهمة الفعالة في تحصين المجتمع من الداخل ضد المتربصين الذين يسعون إلى إفساد فتيات السلطنة والنيل من أخلاقهن والإساءة إلى تاريخهن المجيد. بعد انتهاء الكلمة علا التصفيق إظهاراً للإعجاب والتقدير لما سمعوه من زوجة الراعي الأول للأمن والانضباط الأخلاقي في البلاد الذي كان بدوره يلقي كلمة في مكان آخر من العاصمة بمناسبة انتهاء فعاليات البرنامج الصيفي السنوي الذي نفذته المؤسسة العامة للدعوة والإرشاد، وشدد الوزير سهران في كلمته على تمسك أبناء جبران وحكومتهم الرشيدة بالتعاليم الدينية والأخلاق الفاضلة التي توارثوها عن أسلافهم، كما جدد إصرار

وزارته على محاربة كل أنواع المخدرات والتصدي لمروجي السموم التي تفتك بشباب الأمة وتفسد أخلاقهم، وفي نهاية مراسم الاحتفال سلم الجوائز لعناصر من منظمة حراس الفضيلة التي تعمل على مراقبة وتقويم سلوكيات وملابس المواطنين نساء ورجالاً في الأماكن العامة وحتى نواياهم في بعض الأحيان.

وقف كل الحضور من رجال دين وشخصيات عامة تبعاً لوقوف الوزير سهران وتوجهوا نحو المقدمة لمصافحته والدعاء له بطول العمر والتمكين. وبعد توديعه خرج الوزير من مقر الاحتفال متوجهاً ناحية الموكب المرافق وركب في المقعد الخلفي لسيارته. وبعد دقيقة من مغادرة مكان الحفل أشعل الوزير سيجارته المعتادة التي أنسته كل الشعارات التي قالها أو سمعها في الحفل، وحلق معها في الفضاء ليعيش لحظته الحقيقية بعيداً وهو يلعن تلك اللحى المنافقة.

وكذلك كان حال غزالة بعد انتهاء الاحتفال النسوي، لقد تمادت في التحليق أبعد مما وصل إليه زوجها وكانت بجسدها وروحها خارج كل الأسوار وكل الاعتبارات مع شاب آخر في الأربعينيات من العمر، من عائلة أرستقراطية وبمواصفات شخصية مختلفة عن رفيقها الأول، لكنه مميز.

بعد مغادرة فارس لباريس أو هروبه منها، رأته في مقهى le Fouquet's لفت نظرها بوسامته وأناقته، بطريقة إلقائه لقصائده في المناسبات التي طالما حرصت على متابعتها عبر وسائل الإعلام. كانت غزالة في حالة فراغ عاطفي بعد مغادرة فارس، وكانت مهيأة للدخول في تجربة جديدة كما هي عادتها ملولة تحنّ دوماً للتغيير. أرسلت إليه النادل للفت نظره إليها ولدعوته إلى الانضمام إلى طاولتها، كانت بدايتها مع الشاعر جمال بالاختلاف

على نطق اسم المقهى الشهير ولعله الأشهر على جادة الشانزلزيه: هل هو فوكيه أم الفوكيت، عرفت منه تاريخ المقهى منذ إنشائه في القرن التاسع عشر وحتى أصبح بهذا الحال والأهمية لتاريخ باريس، بل ازدادت إعجاباً بشخصيته بعد أن خصها ببعض قصائده الوليدة. كان يبهرها بكلماته، بنظراته، وما بين الشفاه والعيون تتجلى أسمى معاني الوجد حينما تتنحى كل الظلال والموانع. أضحت غزالة ورقة بيضاء يكتب فيها جمال ما يريد من حركات وفواصل، لقد فقدت الإحساس بكل محيطها ولم تعد ترى إلا صورتها في عينيه، لم تمض ساعة على هذا اللقاء إلا وقد اتفقا على الاسم وعلى ما هو أبعد من كل الأسماء والصفات، سألها إن كانت تريد مرافقته غداً في زيارة لبعض الأماكن التاريخية المهمة في باريس؟ بلا تردد وافقت ولم تكن مهتمة بالتاريخ ولا بالجغرافيا، كان همها استعادة الإحساس بأنها مازالت تسير برفقة رجل مميز، وبأنها ما زالت مرغوبة. اتفقا على المكان والزمان، وفي الموعد المحدد ولسبب ما في نفسه لم يفصح لها عنه، ربما أراد مفاجأتها، وقد تكون استجابة لا إرادية لمكنونات نفسية بهوامش سياسية، اصطحبها مباشرة لمنطقة الباستيل شرق باريس.

ـ هل تصدقين أن فرنسا كانت منذ بضعة قرون مملكة وراثية قبل تحولها للنظام الجمهوري البرلماني؟.

ـ ....

عين غزالة كانت في مكان آخر تراقب باهتمام رجلاً وامرأة يقفان على الرصيف المقابل وهما يتبادلان القبل والأحضان بانسجام وشغف مثيرين: بتلقائية ردت.. لا.. ربما أرادت التخلص من سؤاله أو أنها لا تهتم أصلاً بتلك القضايا السياسية المملة.

وعندما وصلا إلى ساحة الباستيل أشار بإصبعه ناحية النصب التذكاري. قال جمال:

ـ في ذلك المكان بُني حصن للدفاع عن باريس في القرن الرابع عشر، تحول بعد ذلك إلى سجن للمعارضين السياسيين والدينيين للنظام الملكي الذي اقترن وجوده آنذاك بالظلم والاستبداد، وقد تمكن الشعب الفرنسي من استرداد كرامته بثورة شعبية أطاحت الملك وكل عائلته في القرن الثامن عشر بعد خضوعه للإرهاب الملكي عدة قرون.

أبدت غزالة ضيقها وانزعاجها من هذا المكان وذلك التاريخ:

ـ ألا يوجد مكان أكثر رومانسية من هذا المكان؟.

ـ صحيح أن هذا المكان يخلو من الرومانسية لكنه يحمل معاني وعبراً كثيرة نحن في أمسّ الحاجة إليها، وبالمناسبة الفرنسيون لم يصلوا إلى هذه المرحلة من الإبداع والرقي الإنساني الجميل والرومانسي إلا بعد الثورة على واقعهم الظالم والمظلم، سآخذك الليلة إلى أمير الرومانسية.

ـ ومن يكون هذا الأمير؟.

ـ إنه الموسيقار ريتشارد كلايدرمان، سيحيي الليلة حفلاً موسيقياً في إحدى قاعات باريس، أنا متأكد أنك ستستمتعين بمقطوعاته الرومانسية.

ـ هل هو فرنسي؟

ـ نعم فرنسي، ولد عام ١٩٥٣.

نظرت إليه وهي تبتسم:

ـ... معلومة مفيدة، مع أني لم أسال عن تاريخ ميلاده.

ـ يبدو أن هذا التاريخ يعني لكِ شيئاً؟

ـ..........

ـ غداً إذا لم تشغلي بمواعيد أخرى، سآخذك إلى بعض أماكن الورد والجمال، حدائق باريس يضرب بها المثل في الروعة والإبداع وما فاتنا اليوم نعوّضه غداً.

ـ هل تصدق، رغم أني زرت باريس مرات كثيرة إلا أنني لا أعرف منها إلا الشانزلزيه، وبرج إيفل وأماكن التسوق وديزني لاند!.

ـ فرنسا أكبر وأعمق من ذلك، معي ستعرفين أشياء كثيرة.

خرجا معاً، وسهرا معاً، ضحكا معاً، ما زال متحفظاً في سلوكه معها رغم كلماته الشاعرية وأسلوبه الرومنسي، فهو يعرفها ويعرف من يكون زوجها. بادرته بكلمات الإعجاب، أرادت استفزاز مشاعره، بل أرادته منطلقاً معها مبادراً بلا مقدمات، كانت تحاول انتزاع كل دواعي القلق من نفسه. بدأ يقلل من تحفظه في تصرفاته معها ويتجاوب مع تلك الإشارات، بل فهمها كما أرادت هي، كان يتغزل في عينيها أو في صورة فتاته الغائبة أو التي يتمناها، ويمطرها بأعذب الكلمات حتى تخيلت أنها المقصودة وصدقت أنها أجمل نساء الكون.

وفي هذا اللقاء، الثاني منذ عودتهما من باريس، وكان في مزرعته الخاصة خارج العاصمة لبت دعوته وجاءت إليه ومعها صديقتها الدكتورة صالحة التي كانت ترافقها في احتفال المتخرجات، قضتا مع الصديق الجديد ساعات وردية ودافئة، عاشت غزالة تلك

اللحظات بكل صدق وعفوية وتجردت من وجهها المزيف، غزالة مارست طبيعتها بكل حرية وكما تريد هي لا كما يريد أو يتوقع الآخرون. وبعكس فارس، كان جمال يكبح جماح شهوته ولم يصل معها إلى ما كانت تريد رغم أنها حاولت التأثير عليه ليتلمس أنوثتها بكل جوارحه أو لعلها أرادت تحفيز فحولته، إلا أنه كان يخمد بركانه المتقطع كلما شعر بمياهه الساخنة تتحرك بين ثناياه، فهو ما زال يتذكر أنها زوجة وزير الأمن، إضافة إلى أنه كان على اقتناع بأنها امرأة خريفية لا تستحق أكثر من بضع كلمات ملاطفة ولحظات مؤانسة. وفي لحظة صفاء وبينما صديقتها تتمشى بعيداً عنهما أخرجت غزالة من حقيبتها ساعة يد ثمينة جداً تجمع في مكوناتها بين الذهب والفضة وقدمتها هدية لجمال تعبيراً عن إعجاب قد يحفزه على مبادرة خاصة، قبل المُضيف من صديقته هديتها ووعدها بهدية لا تقدر بثمن سيقدمها لها في الأسبوع المقبل لمناسبة عيد ميلادها.

في منتصف الأسبوع اتصل بها جمال وأخبرها أن هديتها مكتوبة في جريدة العاصمة في الصفحة الأدبية التي ينشر فيها قصائده دورياً، نصف صفحة من الغزل الجريء، كانت القصيدة بعنوان «غزالة»، أغلب القراء لم يدركوا أي غزالة يقصد، ولكن هناك من كان يتابع في الخارج والداخل ويعرف من يقصد، في بلد العجائب وآيات التحريم، في سلطنة الصمت، التلميح مكروه، والبوح جريمة، والتصريح قاتل... بعد أسبوع نشرت الصحيفة نفسها نعياً باسم عائلة جمال في صفحة كاملة، لقد توفي جمال في حادث سيارة.

أثناء زيارة القاضي عساف الثانية لابنه مالك في السجن سأله عن المكان الذي وقعت فيه المشكلة، فوصف له القصر الذي بسببه اعتقل هو وصديقه مازن.

ـ يا بنّي هل تعرف لمن ذلك القصر الذي كنتما بجواره؟.

مالك وهو يبكي:

ـ أقسم لك يا والدي أننا في وقتها لم نكن نعرف، ولكن بعد اعتقالنا والتحقيق معنا عرفنا أنه قصر زوجة وزير الأمن، وليست لنا أي علاقة بهذه القضايا لا من قريب ولا من بعيد وأنت تعرف اهتماماتنا.

ـ الله يهديكم.. اطمئن أنت وصديقك، سأبذل كل ما في وسعي لتخليصكما من هذه الورطة.

استمرت محاولات القاضي عساف في البحث عن أي شخصية لها علاقة بالسيدة غزالة أو مسؤول يوصله لوزير الأمن أو ابنه، أو يستطيع إيصال قضيته له، بعد أسبوع تمكن عساف من الاتصال بوكيل أعمال السيدة غزالة وأخبره بالقصة:

ـ أحتاج إلى مساعدتك في تحديد موعد لمقابلة السيدة غزالة في العاصمة أو على الأقل إقناعها بالتدخل لدى الوزير لإطلاق سراحهما.

ـ بالنسبة إلى موضوع ابنك أعدك بإبلاغ السيدة غزالة وسأحاول بقدر الإمكان إقناعها بعمل شيء وسأذكرها بجهودك السابقة معنا في قضايا كثيرة ومنها قضية الأرض الكبيرة.

ـ أقدر لك اهتمامك سلفاً وسأنتظر منك أخباراً جيدة.

كان القاضي عساف في مكتبه، بعد إنهائه المكالمة مع مناع وكيل السيدة غزالة كانت الساعة العاشرة صباحاً من اليوم الخامس والخمسين لاعتقال ابنه مالك وصديقه، مكتب عساف يعج بالمراجعين الغاضبين من طول الانتظار، وباب مكتبه مغلق من الداخل، وسكرتيره يحاول تهدئة المواطنين الساخطين وإقناعهم بأن الشيخ لديه قضية مهمة وسينتهي منها خلال ربع ساعة ثم يقابلهم، ما زال عساف يفكر في كلام الوكيل مناع عن قضية الأرض ويحاول تذكر تفاصيلها من ضمن آلاف القضايا التي مرت عليه خلال العقود الثلاثة في مجال القضاء، عساف يحدث نفسه بصوت خافت:

ـ نعم.. نعم هي الأرض.. وهو القصر.. والضحية ابني.

ـ لكن لماذا ابني بالذات؟.

ـ ....

بدأ عساف يسترجع تفاصيل قضية الأرض التي وقعت قبل سبع سنوات وحكم فيها لمصلحة السيدة غزالة التي استولت على أرض لا تملكها وبنت عليها قصرها الحالي الذي سُجن ابنه مالك بسبب وجوده بالقرب منه.

ما زال عساف يتذكر ورثة المالك الحقيقي للأرض، المرأة الأرملة وصغارها الأيتام برفقة محاميهم وهو رجل كبير في السن جاء متطوعاً معهم لكي يثبتوا أن هذه الأرض ملكهم بموجب ورقة مبايعة قديمة وفيها أسماء وتوقيعات شهود وختم شيخ الدلالين في ذلك الوقت. مازال عساف يتذكر كيف استغل وظيفته ونفوذه باستخراج صك ملكية بتاريخ قديم يثبت أن الأرض ملك للسيدة غزالة، كما أنه يتذكر المبلغ الكبير الذي تسلمه بشيك مصدق من يد مناع وكيل أعمال غزالة. بصعوبة يتنهد ويحاول إقناع نفسه بكلمة يا الله.. لعلها تنظف ذاكرته من سوءات الماضي، فجأة يتذكر أن هناك من ينتظره في الخارج، يقوم متثاقلاً ناحية الباب يفتحه من الداخل وينادي على سكرتيره:

ـ جابر، جابر.. أدخلهم بالترتيب.

ـ حاضر يا شيخ.

بدأ المراجعون يدخلون الأول ثم الثاني والثالث.. وعندما أراد الرابع الدخول حسب دوره كان وقت صلاة الظهر قد حان، طلب القاضي عساف من المراجع العودة بعد الصلاة، غادر عساف للوضوء والصلاة وبعد ساعة عاد إلى مكتبه، وكان عديد المراجعين قد ازداد فى مكتب السكرتير. جلس عساف على

مقعده وطلب من سكرتيره إدخال باقي المراجعين، ومن مجموع عشرين شخصاً كانوا ينتظرون دورهم تمكن خمسة مراجعين فقط من مقابلة القاضي عساف، أما الباقون فقد طلب منهم السكرتير العودة في اليوم التالي لانشغال الشيخ ببعض اللقاءات الخيرية والدروس الفقهية، وفي الحقيقة كان عساف مع قاض آخر مشغولين ببعض الأمور التجارية وبإجراءات التسجيل الشرعي! لأرض كبيرة حصل عليها أحد أبناء جبران منحة من أخيه السلطان مرطان تمهيداً لتخطيطها وطرحها للبيع العام على المواطنين رغم أنها تقع في أخطر مجاري السيول في المنطقة.

في ذات الوقت كانت هناك صلاة أخرى تقام في مكان آخر وفق مفهوم آخر، وقف مالك ومازن وناصر في صف واحد يؤدون الصلاة مع مجموعة من الشباب الجهاديين في أحد عنابر السجن الرئيس المخصص للمتهمين بقضايا الإرهاب، لم يكن مالك يواظب على أداء الصلاة قبل دخوله السجن رغم أن والده يعمل قاضياً منذ ثلاثة عقود وخطيباً للجمعة في أحد أكبر جوامع مدينة البوابة، أما صديقه مازن فكان يصلي أغلب الوقت على الأقل على سبيل العادة أو إرضاءً لوالده.

ومع نهاية شهر رمضان وبداية الخريف أتم مالك وصديقه مازن ثلاثة أشهر في السجن السياسي والسلطات الأمنية تواصل بحثها وملاحقتها للعناصر القيادية في الشبكة الأصولية المتهمة بالتخطيط الإرهابي. في المقابل بدأ مالك ومازن من داخل المعتقل عملية اكتشاف جديدة لعالم آخر بمبادئه وقيمه على الأقل بالنسبة لهما، يستمعان ويناقشان ويحفظان، تأسيس ثقافي وديني وسياسي لشخصيتين جديدتين، حلقات واجتماعات، تنظيم وترتيب

للأولويات، إدراك مختلف لمفهوم الحياة والأخوّة والصداقة وتأصيل شرعي لكل حركة أو فكرة أو عبادة. كان مالك كما الآخرون يراجع الشيخ سالم «أبو الوليد» ويستشيره في كل أموره، ويسأله في كل صغيرة وكبيرة.. ما زال سالم يؤم المعتقلين في الصلاة منذ اعتقاله قبل عامين تقريباً، وكان معلماً للتربية الإسلامية وإمام مسجد أحد أحياء مدينة البوابة. شاب طويل ملتح تظهر عليه معالم القوة والهيبة، مثقف مفوه قارئ ومطلع على كل الاتجاهات والأحزاب السياسية. اعتقلته السلطات التركية قبل بضع سنوات وحوكم فيها بتهمة الدخول إلى الأراضي التركية بطريقة غير شرعية ثم سلموه إلى بلاده. وكان سالم يقاتل في صفوف المجاهدين الشيشان لعدة سنوات، ولسبب ما قرر العودة إلى بلاده متسللاً عبر الأراضي الجورجية ثم التركية، وبعد أن تسلمه جهاز الأمن السلطاني حوكم مرة أخرى مع آخرين من مواطنيه أمام لجنة قضائية عيّنها رئيس الهيئة القضائية العليا بتوجيه شخصي من الوزير سهران وكان القاضي عساف أحد أعضائها.

عندما قرر سالم العودة إلى بلاده لم يكن يخطط لأي عمل إرهابي ولم يأت لتنفيذ مهمات أمنية. كان يحلم بحياة طبيعية بعيداً عن رائحة الدم والبارود. يبدو أن سالم ومثله مئات من العائدين من أرض «الرباط» دفعهم اليأس والملل إلى ترك مناطق القتال «السياسي» بعد أن اكتشفوا أنهم مجرد بنادق للإيجار في مشاريع «جهادية» تديرها أجهزة استخبارات دولية لتنفيذ اتفاقيات سرية بين حكومات ضد أخرى.

كان مطمئناً لأنه سيسلم إلى السلطات الأمنية في بلاده كما

أخبره الأتراك.. وأين المشكلة؟ ولمَ القلق؟ فهو لم يكن طرفاً في أي مشكلة أمنية لبلاده، ولم يشارك في أعمال إرهابية ضد حكومته، لذلك لن تواجهه أي مشاكل في عاصمة بلده. هكذا خُيل إليه. كان يحدّث نفسه ويمنّيها بحياة أسرية هادئة مع عائلته، سيتزوج وينجب الأطفال، سيبدأ بمشروع تجاري صغير.. ولم لا؟ كان خروجه للجهاد بعلم حكومته بل وبتشجيعها ودعمها منذ دخوله المسجد الذي سمع فيه أول كلمات الترغيب بالنعيم وما فيه من حور عين، والترهيب من التخلف عن إجابة نداء الحق، مروراً بالطائرة الوطنية التي ركبها مع مجموعة من الشباب الطيبين الراغبين في «الجنة» التي بشرهم بها أولئك الفقهاء الذين اعتاد المواطن رؤيتهم في مجالس السلاطين يتبادلون الابتسامات والمصالح مع أبناء جبران، وانتهاءً بالمطارات الدولية حيث يستقبلهم مندوبو بيوت المهاجرين، ومن بعيد.. مندوبو بيوت الأشباح.

لم يدرك سالم أن قوانين اللعبة تغيرت وكذلك الشعارات والمصالح، ستظهر لاحقاً آيات وأحاديث أخرى بتفاسير غريبة تتناسب مع المرحلة الجديدة لتحل محل النصوص القديمة، ولن يبقى إلا بعض الذكريات، وللأموات شيء من الدعاء الحسن.

لم يدرك سالم أنه سيواجَه بما لم يحلم به أو يتخيله وهو في أرض المعركة حيث كانت القضية بالنسبة له نصراً أو شهادة، أي إما حياة وإما موت. لم يكن يتصور أو لا يريد أن يتصور أي مصير آخر يمكن أن يحدث بينهما من اعتقال أو تعذيب. حتى عندما تسلمه عناصر الأمن السلطاني واقتادوه إلى مركز التحقيق السياسي كان يظن أن المسالة لن تستغرق أكثر من ساعة، مجرد

أسئلة واستفسارات ويعود إلى عائلته.

هذا الرجل الملتحي الذي كان يقود كتيبة من المقاتلين الاستشهاديين، هذا المحارب الذي طالما حسب له الروس ألف حساب وجنّدوا كل إمكاناتهم للتخلص منه، لم يتمالك نفسه من البكاء ولأول مرة منذ عامين، وكان مالك أول شخص يسمع تفاصيل ما تعرض له مرشده من انتهاكات وتعذيب.

كانت التفاصيل مقززة مؤلمة للنفس قبل الجسد، لذلك لم يستطع مالك تخيلها أو التصديق بإمكانية وقوعها هنا في بلده لولا أنه سمعها من شيخه سالم الذي بدا مقهوراً منكسراً على غير عادته حين يتحدث. أدرك مالك أن شيخه لم يبكه التعذيب أو السجن أو أي ألم جسدي، ظل مالك صامتاً دهشاً وهو يستمع لأول مرة لواقعة اغتصاب لمعتقل ذكر مسلم في سجن بلد مسلم بفعل مسلم وتوجيه مسلم أو من يدّعون أنهم مسلمون.

سالم يستأنف قصته:

ـ سمعت أن المحقق ذا الشفاه الغليظة والداكنة مشهور ببغضه لأصحاب اللحى والجهاديين، لكنني عندما قابلته اكتشفت فيه صفة أخرى أشد قذارة من تصرفاته وألفاظه. كان الضابط أبو شداد مميزاً برائحته النتنة التي تفوح من فمه كلما تحدث بعصبية أو صراخ كما هي عادته، وحتى هذه اللحظة لم أعرف سبباً أو رابطاً طبياً للعلاقة بين الرائحة التي تخرج من فمه وبين التهاب عصب القولون الذي يعاني منه باستمرار، كان لا يتورع عن شتم دين أو نبي، لا مقدس عنده إلا عائلة جبران، كلماته كانت أشد قذارة من رائحة جسده ومن المرحاض

الذي كنت محبوساً فيه، كان يهددني بأبشع الممارسات، وعندما يئس من الحصول على أي نتيجة بتهديداته بدأ ينادي بأعلى صوته على شخصين بألقابهما، وعندما دخلا غرفة التحقيق رأيتهما يجمعان سواد الوجه والقلب، ويبدو أن لهما مهمة محددة لا يجيدان غيرها، كرر صراخه وهددني بأنه إذا لم أعترف، سيترك البغلين كما وصفهما يجرداني من ملابسي وينتهكان عرضي، فكررت ما قلت سابقاً من أنني لا أملك أي معلومات، وأقسمت له بكل ما يؤمن به هو أنني لا أعلم مكانه وليس لي علاقة بالأشخاص الذين سألني عنهم، لم يصدقني الضابط لأنه لم يكن يؤمن بأي دين وليس له إله يعبده ولا أخلاق تردعه.

ـ ....

وكأن الكلمات تُعصر من قلبه، يحاول سالم لملمة مشاعره ليواصل الحديث ودموعه تسابق نبرات صوته المتقطع:

ـ وفي المقابلة الثالثة بدأ المحقق بتنفيذ ما هددني به وتناوب عساكره عملية الاعتداء عليّ وانتهاك عرضي.

مالك متأثراً من أهوال ما سمعه:

ـ معقول! لماذا؟ ما هي تهمتك؟ ما هي المعلومات التي يريدون معرفتها؟.

ـ كان المحقق يسألني عن مكان اختباء الشيخ ذو الفقار، وسألني عن بعض الأسماء التي ما زالت تحمل السلاح.

ـ وما هي علاقتك بذلك الشخص؟

صمت سالم قليلاً، تناول قارورة ماء كانت بجانبه، شرب ثلاثاً ثم

استأنف قصته بعد استراحة لبضع دقائق، هدأت فيها نفسه ولان صوته:

ـ كنت ضمن وحدة الحماية الشخصية للشيخ ذو الفقار عندما توجه الشيخ لفندق ماريوت إسلام أباد عام ١٩٨٨ ليلتقي بمسؤولين في وكالة الاستخبارات الأميركية CIA بعد وساطات متكررة من أمنيين شرق أوسطيين، وبعد سنة من تلك الاجتماعات توجهت إلى الشيشان بأوامر من الشيخ ثم انقطعت أخباره عني منذ ذلك الوقت، وكانوا يعلمون أنني كنت المرافق الأمني الشخصي لذو الفقار، كما كنت أعلم أنا بوجودهم في الفندق، وهم مصرون الآن على أنني أملك معلومات عن تحركات الشيخ وأماكن اختبائه أو يمكنني الحصول عليها متى شئت ويريدون استخدامي طعماً للإيقاع به، مع أنهم يعلمون أني قطعت كل علاقاتي السابقة وخاصة المتصلة بالتنظيمات الجهادية، كما أن قيادات الجماعة قطعوا اتصالاتهم بي منذ أن غادرت الشيشان إلى تركيا واعتقلت هناك لمدة عام كامل في منطقة منعزلة حيث استجوبتني الاستخبارات التركية عشرات المرات قبل أن يسلّموني، وأنا من هذا المكان وفي هذا الحالة لم يعد لدي ما أخفيه أو أخاف عليه.

ـ وما هي علاقة الشيخ بحكومات كافرة أو عميلة!.

ـ تقاطع مصالح فقط، كان العدو مشتركاً، وكان بعض المسؤولين الأمنيين في دول النفوذ الرأسمالي يطلبون مقابلة الشيخ ذو الفقار وكان يقابل البعض ويرفض البعض الآخر، ويتفق مع جهات ويختلف مع أخرى، ولم يكن يسعى هو إلى

أي جهة بعينها، وعندما ضعف ذلك العدو وانسحب من أفغانستان أصبح ذو الفقار وجماعته عدوهم الأول.

ازداد انبهار مالك بشيخه سالم وإعجابه به بمقدار تألمه لحاله وكذلك كرهه للنظام السياسي والأمني في بلده، وأصبح حينها مستعداً لتنفيذ أي عمل انتقامي، خاصة بعدما علم أن جلسات التعذيب وعمليات انتهاك أعراض المعتقلين يتم تصويرها بالفيديو لترسل بانتظام إلى وزير الأمن الذي يحرص على متابعة التحقيقات بالصوت والصورة... ولعله يشعر ببعض المتعة والإثارة فيها.

يبدو أن هذه الجلسة الخاصة التي جمعت بينهما في هذا المكان الخاص والمناسبة الخاصة قبيل موعد الإفراج عن بعض المعتقلين قد خففت من مشاعر الألم والغضب وألقت بها في وجدان مالك الذي تحول من خلف أسوار السجن إلى شخص غاضب متمرد على ماضيه بكل ما فيه، حتى تلك اللحظات الصبيانية والجميلة التي كانت تجمعه بأصدقائه وعائلته وبصديقاته الفتيات اللاتي كن يضحين ببعض محاضراتهن في الجامعة لخوض تجربة أنثوية أو لتقليد مشاهد رومانسية مع عاشق مفترض.

قبل خروج مالك وصديقه مازن من السجن طرح سالم سؤالاً على أتباعه في السجن وأغلبهم من الشباب، اجتهد الجميع في التفكير لمعرفة الجواب أو الرد المناسب:

ـ هل الأولى والأكثر فائدة للأمة رفع الظلم عن المظلوم أم إزالة الظالم؟ وكذلك منع الفساد أولى أم الأخذ على يد المفسد.

ـ..............

كان سؤالاً ملغوماً لم تستوعبه عقول المستمعين المحبين للشيخ سالم، لم يدركوا مغزاه.

ـ إن الأولى مساعدة المظلومين ومنع الفساد.

ـ لا فرق بين الفساد والمفسدين.

ـ وأنت يا مالك ماذا تقول؟ هل هناك فرق؟.

ـ وهل هناك فرق بين الفعل وفاعله؟.

كلمات نطق بها مالك لا تحمل بعداً فلسفياً كما يتبادر للذهن، بل محاولة استفهام عفوية، سالم أعاد السؤال بطريقة أخرى وقال لهم:

ـ إذا وجدتم الفقير والعاطل من العمل واليتيم المشرد والأرملة المتسولة، هذه مجموعة تمثل شريحة من الشعب تشاهدونهم في الطرقات والأسواق والمساجد، القضية هنا تتعلق بكيفية مساعدة هؤلاء المواطنين بطريقة ترفع عنهم الظلم وتحميهم من الفساد وفي الوقت نفسه تحمي ضحايا آخرين من الوقوع في مشكلتهم.

مالك بعد أن بدأ يدرك بعض المعاني:

ـ العمل الجذري هو الحل.

ـ يا سالم إخوانك هنا يحتاجون إلى توضيح أكثر لما قلت.

ـ أقصد يا شيخ أن العون الحقيقي والمساعدة الدائمة للمظلوم والفقير لا تكون فقط بمساعدة مادية أو معنوية لشخص أو شخصين فقط تعرضوا للفساد والظلم لأن المأساة قد تتكرر مع مواطنين آخرين، بل الأولى إزالة الظالم والسارق، والقضاء

على المفسد حتى لا تتكرر أفعالهم مع ضحايا آخرين. لم يتردد مازن في تأييد كلام صديقه مالك بل إنه حرض الجميع على التضحية والمبادرة في سبيل حماية الدين وإزالة كل مظاهر الفساد بالقوة.

شعر الشيخ سالم بسعادة غامرة، الرسالة وصلت للجميع وبلسان أحدهم وبفهمه وإرادته، وكان مالك وصديقه يستحقان ثناء شيخهما سالم واهتمامه.

كان الشيخ سالم يتحين فرص اللقاءات والحوارات بعيداً عن عيون حراس السجن وآذانهم داخل الزنازين والعنابر، وأثناء اللقاء كان يكتفي بطرح الأسئلة المثيرة وبعض الإشارات، يبثها في مخيلتي مالك ومازن، يوجههما بتحريض ناعم، فينصرفان من أمامه وهما يصارعان رياح المقارنة بين الحق والحقيقة وكذلك بين الشعارات والواقع.

سالم لا يطلب منهما فعل هذا وترك ذاك بل يدعوهما دوماً إلى التفكير والبحث، سالم يحرص دوماً على طرح الأسئلة ومريدوه يتبرعون بالإجابة أو بمحاولة البحث عنها.

بضعة أشهر كانت كفيلة برسم خريطة طريق أمام الصديقين بل وتأسيس منهج أخروي خلال اعتقالهما الظالم، أصبحا يحملان أمانة التغيير ورسالة العدل وإقامة الشرع.. هكذا بُث في روعهما.. الفارغين.

وفي أواخر الخريف أنهت غزالة كل التزاماتها الاجتماعية والدينية في العاصمة حيث كان قصرها الأول يعج بالشخصيات النسائية البارزة في المجتمع. ولم يدخل فصل الشتاء إلا وقد تمت كل

أعمال التجديدات والصيانة في قصرها الثاني حيث تعودت أن تقضي فيه شهرين أو ثلاثة من كل عام، في الفترة نفسها تمكنت أجهزة الأمن من إلقاء القبض على بعض العناصر القيادية في الشبكة الإرهابية وقتل آخرين، ورضوخاً لمتابعات ومطالبات الهيئات الحقوقية الدولية وبناءً على المعلومات ونتائج التحقيق تقرر إطلاق سراح مجموعة ممن لم تثبت إدانتهم من المشتبه فيهم، ومنهم مالك ومازن وكذلك ناصر. بعد ثمانية أشهر من المشاعر المتراكمة، خوف وألم وإحساس بالظلم وكم هائل من الكره للأسرة الحاكمة ولكل ما يمثلها من فساد وتسلط، خرج مالك ومازن وهما على اقتناع بأن لهما دوراً أو مهمة مستقبلية لتغيير الواقع الفاسد واستبداله بالصالح والصحيح وفقاً لرؤية الشيخ سالم وتفسيره، وبينما كانت الدكتورة صالحة مع بعض الصديقات في ضيافة غزالة يتناولن كعكة الشوكلاتة الفرنسية ويحتسين الشراب المحرم على الشعب في قصرها الساحلي، كان مالك ومازن يصليان العشاء في أحد المساجد القريبة من القصر، أما ناصر فكان يتجهز للسفر إلى لندن ليبدأ نشاطه السياسي المعارض من هناك، وكان عام جديد.

استمرت العلاقة المميزة بين الصديقين حتى طرأت على حياة مازن مستجدات أسرية قاهرة أجبرته على تعديل نمط حياته واختياراته. لقد أصبح مازن مسؤولاً بكل ما تعنيه الكلمة عن أسرته، فبعد شهرين من إطلاق سراحه، وملازمته الطويلة لصديقه مالك داخل السجن وخارجه اضطر مازن للبقاء أغلب ساعات يومه في المنزل بعد وفاة والده وتعرض والدته لأزمة قلبية ألزمتها الفراش، وبين رعايته لأسرته ودراسته الجامعية التي حرص على استكمالها بعد انقطاعه الإجباري عنها، بدأ مازن ينشغل عن

اللقاءات الشبابية التي ينظمها مالك، حتى أصبحا لا يلتقيان إلا نادراً، فبالرغم أن الصديقين ينظران إلى الأسرة الحاكمة بنفس المنظار ويحملانها مسؤولية كل ما يشاهدانه من فساد مالي وأخلاقي وتبعية للأميركان، إلا أنهما يختلفان في رد الفعل أو طريقة التعبير عن مشاعرهما، فبينما اكتفى مازن بأضعف الإيمان وهو الإنكار بالقلب، ربما خضوعاً لظروفه الأسرية ومسؤولياته الجديدة أو إعادة ترتيب لبعض أولوياته، اختار مالك طريقاً آخر يعبر فيه عن موقفه ويساهم بتغيير الواقع الذي يراه فاسداً، ولأنه متأثر حتى النخاع بتوجيهات وأفكار الشيخ سالم فإن توجهه للتعبير والتفعيل سيكون حاداً، وبالتأكيد أنه ما زال يؤمن أن له دوراً قيادياً في تغيير الواقع على طريقته.

وبعكس مازن، لم يكن مالك متحمساً لاستئناف دراسته الجامعية بل طلب من والده مساعدته لعمل مشروع تجاري يديره بنفسه. كان الشيخ عساف لا يخفي أمنيته في إكمال ابنه لدراسته الجامعية إلا أنه اختار مسايرة ابنه لاقتناعه بأنها قد تكون أزمة نفسية بسبب الظروف التي تعرض لها، على أمل أن تكون حالة مؤقتة يعود مالك بعدها إلى حياته الطبيعية ويكمل دراسته حتى ولو كانت خارج السلطنة، ولذلك وافق عساف على طلب ابنه واقترح عليه إنشاء مؤسسة متخصصة في أعمال العقار من بيع وشراء وتطوير وإدارة، وكان الشيخ يخطط للاستفادة من المؤسسة مستقبلاً بعد أن يقضي فيها ابنه مالك بعض الوقت وتتحسن حالته النفسية ويعود إلى دراسته. وافق مالك على فكرة والده بدون مناقشة لأن هدفه من المشروع هو التمويه على عمل آخر يخطط له منذ بضعة أشهر، ويحتاج إلى واجهة تساعده على تحقيق هدفه.

بعد شهرين من الإعداد والنشاط المتواصل تمكن مالك من افتتاح المؤسسة وتجهيزها بكل مستلزماتها وتوظيف عدد من المتخصصين في مجال العقار والتسويق، ثم تفرغ لاجتماعاته وخططه الخاصة وكان يعقدها في مكتبه داخل مؤسسته العقارية الواقعة في إحدى البنايات الكبيرة التي يملكها والده عساف.

استغل مالك الحركة الطبيعية لزبائن المكتب في تغطية اجتماعاته مع عناصر الخلية الأصولية المقربة من الشيخ سالم وكل أفرادها مدربون لتنفيذ عمليات عسكرية وأمنية ضد أهداف ثابتة ومتحركة، وكانت العملية الأولى لهم داخل السلطنة موجهة ضد شخصية مقربة من وزير الأمن، ولم يكشف مالك عن اسم تلك الشخصية إلا للعنصرين المكلفين بجمع معلومات عن تحركات ذلك المسؤول، أما باقي العناصر فكانوا مقسمين إلى مجموعتين الأولى مهمتها تدبير الأموال اللازمة لتنفيذ العملية والأخرى لإعداد وسيلة التفجير، كان الشيخ سالم يعرف بالمخطط بل إنه هو من طلب من مالك قبل خروجه بتنفيذ هذه المهمة العظيمة، كما سماها، للقصاص من الوزير وابنه لتنكيلهما بالصالحين!.

المستهدف من العملية هو كمال الابن الأكبر لسهران من زوجته الأولى وقد عيّنه والده مسؤولاً عن الأمن السياسي في السلطنة. وكان كمال مشهورا في كل المعتقلات والسجون المحلية بالقسوة والعنف ضد المعاوضين والجهاديين، وكانت توجيهاته تجبر المحققين على استعمال أقسى أنواع التحقيق النفسي والجسدي ضد المعتقلين، وعلى أقل تقدير هذه هي الصورة التي رسمها وقدمها الشيخ سالم واقتنع بها مالك، حتى تحولت لديه

إلى قضية عقائدية يتقرب بها إلى الله.

تمكنت مجموعة الرصد من جمع المعلومات المطلوبة عن تحركات كمال بن سهران، ومع توافر الدعم المالي للعملية انتهت المجموعة الثانية من تجهيز سيارة ملغمة بالمتفجرات وكانت السيارة من ضمن مئات السيارات المُبلغ عن سرقتها في البلاد ولم تتمكن الأجهزة الأمنية حتى تاريخه من معرفة مصيرها. وفي آخر لقاء عقد بين أفراد الخلية الأصولية حدد لهم مالك وقت العملية وكلف المجموعة الثانية بوضع السيارة في طريق سير موكب كمال وتحديداً في منطقة تقاطع بحيث تسهل إصابتها من أكثر من جهة.

ومع اقتراب الموكب من النقطة المحددة انطلقت السيارة المفخخة لتصطدم بالموكب بعد أن بدأ شخصان من المجموعة المسلحة بإطلاق النار من جهة أخرى لصرف انتباه المجموعات الأمنية المرافقة له. نتج من العملية الانتحارية انفجار كبير سمع دويه في ضواحي المدينة وكانت الحصيلة عشرات الإصابات بين قتيل وجريح وخسائر مادية كبيرة في واجهات البنايات والمحلات التجارية القريبة من موقع الانفجار وإصابة مباشرة للموكب ووفاة كل من فيه، ما عدا المستهدف الأول من العملية.

كمال بن سهران لم يكن ضمن الموكب، كل القيادات الأمنية وتحديداً ذات العلاقة بالملفات السياسية والجهادية محاطة بإجراءات أمنية مشددة ولا تتحرك خارج المنشآت الأمنية إلا في حدود ضيقة وبسرية تامة. كان القلق من حصول اختراقات أمنية يسيطر على أعصاب وتفكير مسؤولي وزارة الأمن وفي مقدمتهم كمال، خاصة بعد ورود معلومات جديدة للأجهزة الأمنية تفيد

عن وجود احتمالات قوية لتنفيذ عمليات ضد شخصيات أمنية كبيرة، ولذلك اعتمدت أشد درجات الحذر في تحركات القيادات الأمنية داخل السلطنة، وكان كمال بن سهران يستخدم التمويه وتغيير خطط سيره عدة مرات في اليوم الواحد، تحسباً لتكرار الجهاديين عملياتهم السابقة التي استهدفت ضباط التحقيق السياسي المشهورين بانتهاكهم لأعراض المعتقلين.

خلال التحريات التي أعقبت الحادث قدم أصحاب المحال القريبة من مكان التفجير أوصافاً متقاربة لشخص كان يتردد بنحو لافت على الفندق الوحيد في منطقة الانفجار لاستئجار غرفة مطلة على التقاطع المستهدف، وقد شاهده أكثر من شخص في المكان تكراراً. تمكن المحققون من تكوين صورة تقريبية للشخص مما ساعدهم في تحديد هويته، وكان أحد عناصر المجموعة المكلفة بالرصد وجمع المعلومات، بعد متابعات وملاحقات أمنية مكثفة استمرت شهرين تمكنت السلطات من إلقاء القبض عليه أثناء محاولته الهروب عبر الحدود البرية، وعن طريقه تم التعرف على باقي أفراد الخلية ومن ضمنهم مالك بن عساف، وبعد ملاحقة أمنية لم تستغرق وقتاً طويلاً ألقي القبض على مالك وألقي في السجن المخصص لقضايا الإرهاب، ثم قدم مع بقية المجموعة إلى محاكمة خاصة لا تختلف كثيراً في شرعيتها عن المحاكمات التي كان يشارك فيها الشيخ عساف في القضايا المماثلة أو حتى القضايا الأقل شأناً منها.

الشيخ عساف أُخذ بجريرة ابنه وأحيل للتقاعد، ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل بدأت الجهات الأمنية فتح ملفاته القديمة، وتناوبت الصحف على المطالبة بالكشف عن علاقته بقضايا إصدار صكوك

جديدة على أراض مملوكة، وعمليات وضع اليد على أراض عامة، وقضايا أخرى أغلق التحقيق فيها منذ سنين.

عاد مالك إلى السجن الذي تعلو مدخله لوحة مكتوب عليها «للإصلاح والتهذيب» إصلاح ماذا؟ وتهذيب من؟ وكيف؟ أسئلة لم تطرح بعد أو لم يُسمح لأحد بطرحها، لكنها قابلة للافتراض والتخمين، عاد مالك إلى السجن ولكن باختياره هذه المرة واقتناعه ولم يكن حزيناً وكان صاحب القرار.. قرار إعدامه.

على المنبر

كان الشيخ راضي رئيس الهيئة القضائية من المقربين للوزير شاهين، وكان من الملازمين السابقين للسلطان الراحل حواس الذي عيّنه على رأس المؤسسة القضائية. الشيخ راضي لا يشكل حالة خاصة في نظام جبران السياسي والديني بل يعكس واقعاً غريباً وفريداً تعيشه سلطنة جبران، إن العلاقة الحميمية المستمرة حتى الآن بين أبناء جبران ورجال الدين تمثل نموذجاً فريداً من نوعه يثير علامات التعجب ويستقطب الباحثين والكتاب على المستويين الداخلي والخارجي، ومن أبرز تلك النماذج الغريبة في سلطنة جبران ما يجمع بين قضاة وفقهاء مشهورين بتشددهم الديني حتى في أبسط القضايا الفرعية وبين شخصية منفتحة من كل الجهات وبكل المعايير كالوزير شاهين المعروف بإسرافه وشراهته في كل شيء، فهو شره في الأكل، شره في الشراب، شره في الجنس بكل أحواله وأنواعه، شره في الاستيلاء على المال

العام وأحياناً الخاص، وله بعض النفحات الكريمة على من حوله وعلى أقربائهم، وكل المساهمات الخيرية التي يقدمها تأخذ مكانتها وسيرتها الإعلامية حتى يعلم بها كل الكائنات الحية بين السماء والأرض، وكل ما ينفقه بيده اليمنى في أوجه الخير لا يشكل قطرات في بحور ما يملكه أو يسرقه بيده اليسرى.

تعلم الأبناء من والدهم المؤسس جبران خطورة الشعارات والنصوص الدينية وأهمية السيطرة على مصادرها والتفرد بقراراتها في التجمعات والمؤسسات الاجتماعية والدينية داخل السلطنة، حيث الجهل بشؤون السياسة والحكم وتعطيل العقل في بعض القضايا المتعلقة بالشأن العام والاعتماد المفرط على النصوص القديمة والمصطلحات التراثية، ولذلك يحرص ورثة جبران وخاصة شاهين على إظهار العلاقة المميزة برجال الدين من خلال الحفلات ومراسم الاستقبال الخاص لرجال الدين والتودد معهم بشكل مبالغ فيه وإظهار ذلك على وسائل الإعلام تأكيداً على البعد الديني والأخلاقي في حياتهم. تعوّد شاهين على اصطحاب شيخ أو مستشارٍ ديني أثناء سفراته الخارجية وتنقلاته الداخلية، مهمته إيجاد مخارج شرعية لسلوكيات سيده الوزير والبحث في النصوص لتبرير رغباته، كما يستخدم الشيخ واجهة دعائية لستر أو تجميل الفضائح أو التسريبات الجارحة لهيبة شاهين وأبنائه.

كان شاهين يكتفي بوجود الشيخ ملحم ضمن حاشيته المرافقة له، حتى رأى حلماً مزعجاً في منامه سبب له خوفاً وقلقاً نفسياً لم يعتده من قبل. كان شاهين يتسابق مع أحد إخوانه في طريق طويل، ورغم إصراره على مواصلة الركض وتجاوز أخيه إلا أن

سنه وصحته لم يساعداه على مواصلة السباق، بل إنه سقط مُكباً على وجهه، وجاء من خلفِه رجل ضخم الجثة ليبرك على ظهره وهو ممدد على الأرض. والذي عزز مشاعر الخوف في نفس شاهين أن هذا الحلم جاءه في نفس الليلة التي زاره فيها السفير الأميركي ونقل إليه رسالة من واشنطن تحذره من وقوع مشاكل سياسية داخلية إذا لم يسارعوا في تنفيذ إصلاحات في نظام الحكم وإشراك الجيلين الثاني والثالث من أبناء جبران في الحكم والتقليل قدر الإمكان من عمليات الفساد المالي داخل الأسرة الحاكمة، كما حذره من مؤامرة تحاك ضده من داخل البيت بهدف إبعاده عن العرش. الوزير كعادته وعادة إخوانه لا يناقشون الأميركان في ما يقدمونه من نصائح وتوجيهات لأنها في حساباتهم ذات صدقية مطلقة تعتمد على أجهزة رصد فضائية ومراكز معلومات تحيط بالعالم، والإدارة الأميركية مهما كان توجهها لا تعلن كل المعلومات التي تحصل عليها عن طريق تنصّتها على مكالمات أركان البلاط السلطاني وعلى العالم كله، ولا تخص بها طرفاً دون طرف من أبناء جبران.

في صباح اليوم التالي استدعى شاهين مستشاره الديني وقص عليه حلمه وطلب منه التعبير، فقال له الشيخ ملحم: أضغاث أحلام.. يعني مجرد كابوس، وحبذا لو قمت بإنفاق بعض الأموال والتقليل من الشراب خاصة قبل النوم. وبالفعل أمر شاهين بتوزيع الأموال على بعض الفقراء والمحتاجين في المملكة، وأعلن ذلك في وسائل الإعلام.

بعد بضعة أيام تكرر عليه الحلم بنفس التفاصيل، ازداد شعوره بالخوف والقلق، وانتابته حالة من الكآبة، والبكاء في بعض

الأحيان، لاحظ سكرتيره الخاص تغير حاله فسأله عن السبب، فلما أخبره شاهين بتفاصيل حلمه، اقترح عليه السكرتير اللجوء إلى مفسر للأحلام والرؤى يسكن أطراف العاصمة مشهور بورعه وأنه لا يأكل الحرام ولا يقبل المِنح ويمتنع عن مجالسة الحكام وشيوخ السلطان. وافق شاهين على الفكرة بشرط أن يذهب السكرتير بنفسه إلى مفسر الأحلام ويخبره بالحلم بدون الكشف عن شخصيته. ذهب السكرتير إلى المفسر وقص عليه الحلم، فأجابه المفسر بأن صاحب هذه الرؤيا سيتعرض لمرض خطير ولن يحقق حلمه. صُدم السكرتير من هول ما سمع، طلب من الشيخ الإعادة فأعاد التفسير ذاته وزاد أنه لن يصل للحكم. اكتفى السكرتير بإعادة واحدة خوفاً من زيادة أو تعبير كارثي آخر. بدا السكرتير حائراً مع نفسه يفتش في ذاكرته عن مخرج، يردد بصوت خافت ماذا أقول لولي العهد؟ وبأي طريقة؟، الله يستر.. الله يستر.

بمجرد عودته أبلغ السكرتير ما سمعه إلى الوزير شاهين الذي أغضبه ذلك التفسير فشتم قائله وناقله وسخر من تلك التخاريف! وبأعلى صوته:

ـ من يستطيع منعي من حقي في الحكم..! سأدمر كل من يفكر في اعتراض أحلامي وحقوقي.

ـ اهدأ يا سيدي ما زالت الأمة تحتاج إليك، فأنت شاهين الخير والإحسان، والشعب يحبك وسيقف بجانبك.

تبدو على ملامح وجهه كل علامات الذهول، قد تكون صرخة استنكار أو صيحة رفض وإثبات في آن واحد، وفي داخله يكمن الرعب بكل معانيه، لم يفكر هو أو من حوله أنه سيأتي حين من

الدهر يبتعد فيه شاهين عن الحكم رغبة منه أو رغماً عنه. ويبدو للمحيطين به أنه فقد عقله من القلق المسيطر عليه قبل أن يفقد سلطته، لقد مات شاهين من الخوف وهو على قيد الحياة.

حاول البعض ممن حوله من العارفين بنفسيات السلاطين وعقول الحكام التخفيف من همه وغمه ونصحوه باستدعاء بعض العرافين الأفارقة لمرافقته وقراءة طالعه لعله يتفادى أو يخفف بعض مصائب الغيب. لم يكن لشاهين خيار آخر سوى القبول بتلك النصيحة التي أضافت إلى حاشيته ثالث شخصية مهمة بعد الشيخ الفقيه ومتعهد المهمات الخاصة وسهرات الأنس والطرب. ورغم أن الشيخ والساحر لم يكونا يلتقيان كثيراً إلا أنهما يتعاونان لتلبية حاجات الوزير مع أن الشيخ يعتقد بكفر الساحر ووجوب قتله، والساحر لا يؤمن بمعتقدات الشيخ ولا يكن له أي احترام ويعدّه منافقاً ووصولياً، وبعد ذلك كله لا يزالان يعملان في نفس المكان ويأكلان من نفس المصدر ويسعيان لتحقيق نفس الهدف وذات المصلحة كلٌ بحسب دوره وبطريقته لتنفيذ توجيهات الوزير شاهين الذي مازال على حاله، يأكل كثيراً، ويشرب كثيراً، ويسرق كثيراً، ويؤذي كثيراً، ويصطاد كثيراً.. لكي ينسى حلمه المزعج الذي يتكرر عليه كثيراً وينغص عليه حياته كثيراً كثيراً.. حتى مرض شاهين بالفعل وتراجعت فرصه في قائمة الحكم وتقدم عليه بعض إخوته، لا أحد في السلطنة يستطيع جمع كل تلك المتناقضات إلا شاهين وإخوته، والمقربون من رجال دين ومال.

على بعد مائتي كيلو متر شمالي العاصمة تقع الرابية وهي مدينة سهلية زراعية مناخها متطرف.. وغالبية أهلها كذلك، لا أحد في الرابية لا يعرف الشيخ خلف رئيس المحكمة وإمام الجامع الكبير وصاحب العقار والمال والنفوذ، خلف ابن أخت الشيخ راضي رئيس الهيئة القضائية في السلطنة تخرج من كلية القضاء العالي وعمل قاضياً مبتدئاً في إحدى محاكم العاصمة برعاية خاله الذي ساعده على اختصار سنة المرافقة القضائية إلى ستة أشهر ليعيّن قاضياً أول في مسقط رأسه بالرابية، وبعد ثلاث سنوات أوكلت إليه رئاسة المحكمة ليصبح في السنة الرابعة رئيساً رسمياً للمحكمة.

يتداول أهل الرابية حكايات فساد مالي وأخلاقي سبق أن تورط فيها بعض أعيان ووجهاء مدينتهم، ومنها قصة الأرض التي استولى

عليها حاكم المدينة بمساعدة القاضي خلف. كان الخطاب الرسمي الموجه من حاكم المدينة مشعان بن شاهين إلى العاصمة يتضمن طلباً للحصول على موافقة السلطان لتخصيص أرض كبيرة وتخطيطها على شكل قطع سكنية وتوزيعها على ألف مواطن من أبناء المنطقة ذوي الدخل المحدود الذين لا يملكون مسكناً، وعندما جاءت الموافقة باسم حاكم المدينة لإدارة وتوزيع المنحة الحكومية بدأ القاضي خلف وبعض المسؤولين الفاسدين بالعمل على تسجيل الأرض بكل مساحتها باسم مشعان، وبعد شهرين أعاد مشعان بيعها بقيمة خيالية لوزارة الجيش والتجهيزات العسكرية لإقامة مستشفى عسكري كبير.

لقد كان الشيخ خلف مستبداً في تعامله مع مرؤوسيه في المحكمة، متشدداً في أحكامه وقراراته يستمد قوته من خاله في العاصمة ومن علاقته الخاصة بحاكم المدينة، وبهذه القوة والتسلط كان يتصرف في المحكمة كما يتصرف بأملاكه العقارية ويدير قضايا المواطنين وشؤونهم كما يدير شؤون مزرعته الخاصة بما فيها من خدم وماشية. بهذه الشخصية التي لا تختلف كثيراً عن شخصية خاله التي يجتمع فيها كل صفات التناقض والفساد والاستبداد تحت عباءة الدين وحماية السلطة، انتشرت فضائحه وكثر أخصامه في المدينة وعند بعض الجهات في العاصمة، كانت إدارة حراس الفضيلة في المدينة تنشط في منطقة الضواحي التي تكثر فيها مزارع واستراحات المواطنين من العامة والخاصة الراغبين في المتعة والخصوصية بعيداً عن رقابة الأصوليين وتسلطهم في المدينة، وفي تلك الاستراحات يقيم كبار الشخصيات حفلاتهم وسهراتهم الخاصة، فالذين يحرمون السجائر والنارجيلة داخل المدينة يدخنون الحشيش في ضواحيها، والذين

يجرمون اللقاءات وتبادل الأحاديث بين الجنسين في الأسواق والتجمعات لا يشعرون بفداحة العلاقات المثلية المنتشرة بين أظهرهم، وهمّهم الأكبر منع الاختلاط ومحاربة القنوات الفضائية.

وفي ليلة آخر الأسبوع وصلت إخبارية لمدير المركز بوجود تجمع مختلط في إحدى الاستراحات خارج المدينة، ولأن حراس الفضيلة ينتظرون بفارغ الصبر مثل تلك البلاغات المثيرة لهم والمحفزة لشهوة الرقابة والوصاية في داخلهم، أُعدّ لعملية المداهمة بسرية تامة حتى لا تنكشف للفاسقين والعلمانيين!.. حسب تصنيفهم لمجتمعهم، وفي منتصف الليل تحرك الأصوليون الرسميون واقتحموا الاستراحة ولم يكونوا يعرفون من هو صاحبها ولا من فيها، وكل معلوماتهم أنهم ذاهبون لصيد ثمين من أهل المنكر والفسوق، وكانت المفاجأة.. رئيس المحكمة وأحد تجار المدينة المشهورين وصهر حاكم المدينة، شراب وحشيش ومجموعة من الفتيات بمختلف الأعمار بعضهن مطلقات وفيهن صاحبات قضايا وحاجات كن يترددن على القاضي في مكتبه، وأخريات أُستقدمن من خارج المدينة بل ومن خارج الحدود. وكالعادة وبحجة المحافظة على هيبة القضاء والرغبة في الستر.. على الكبار فقط، أطلق سراح الجميع ورحّلت الفتيات الوافدات وأغلق الملف قبل أن يفتح، وكأن شيئاً لم يكن. وفي الوقت الذي كان فيه موظفو ميناء البوابة مشغولين بتخليص وإنهاء إجراءات ٣ حاويات «containers» تحتوي على أفخر أنواع الخمور الفرنسية باسم أحد أبناء جبران، نشرت الصحف المحلية الخبر التالي: الناهون عن المنكر يدهمون منزلاً لأحد الوافدين الهنود يستخدمه لتصنيع الخمور وقد ضبطوا خمسين قارورة معبأة وجاهزة للبيع.. وفي خبر آخر: حراس

الفضيلة في مدينة الرابية يلقون القبض على شاب حاول معاكسة إحدى الفتيات في السوق، وفي كل أسواق السلطنة ما زال حراس الفضيلة يلاحقون كل امرأة تكشف عن وجهها حتى لو كانت مضطرة أو غير متبرجة، وحتى القواعد من النساء لم يسلمن منهم.. وما زال قاضي الرابية على حاله وكذلك حاكمها.

ينتشر حراس الفضيلة في الأسواق والتجمعات النسائية، حرصاً منهم بحسب زعمهم على منع المنكر واستتباب السلوكيات الدينية والأخلاقية في المجتمع، فتراهم يأمرون هذه بالتستر وتلك بخفض الصوت، ويسألون هذا عن الهدف من وجوده في السوق ويؤنبون آخر بسبب طول شعره.

الشيخ عبدالكريم المعروف بتشدده كُلف مؤخراً برئاسة مركز الفضيلة في وسط العاصمة حيث تكثر المجمعات التجارية الفخمة والواسعة التي عادة ما تشهد حضوراً نسائياً كثيفاً خاصة في أوقات المساء. وكان عبدالكريم يعمل سابقاً في إحدى المدن الهادئة في الشمال. الآنسات والمتزوجات وحتى المطلقات يحرصن دوماً على زيارة هذه المراكز التي تعرض كل أنواع الملابس ومتعلقات الزينة والعطور والمجوهرات وكل ما تحتاج له المرأة في مختلف مراحل عمرها، كما أن في هذه المراكز استراحات مخصصة للنساء ومقاهي ومطاعم وأحياناً أماكن نسائية مغلقة لتدخين النارجيلة، هذه الأماكن تتيح بعض الحرية والمتعة والجو العائلي، وتغري كثيراً من النساء على التواجد فيها لساعات طويلة بين شراء ومشاهدة ومتعة وأحياناً مواعدة.

وهذه المجمعات الترفيهية والمراكز التجارية التي يملك معظمها أفراد من أسرة جبران الحاكمة، تشكل في مجملها بيئة جذب

طبيعية للرجال من كل الأعمار والمستويات الاجتماعية لكونها المتنفس الوحيد والمكان الآمن الذي يمكن أن تقصده النساء لإفراغ طاقاتهن ورغباتهن المكبوتة، وفيها يستعرضن مقوماتهن الأنثوية ليعوضن مشاعر الحرمان، وكلما كان السوق فخماً وكبيراً ومتنوعاً، ازداد تميز مرتاديه وتنوعهم وتألقهم، وعليه يزيد حجم المدفوع والمجموع من المال.

أبناء جبران الذين يحرص معظمهم على بناء المساجد داخل السلطنة وخارجها هم ذاتهم الذين ينشئون البارات الخاصة داخل قصورهم ويبنون المجمعات التجارية ويزودونها بوسائل الترفيه والمتعة والإغراءات، أبناء جبران الذين يؤسسون الهيئات الخيرية المحلية والدولية وينفقون عليها من أموال الشعب هم الذين يسرقون المال العام ويأكلون أموال الفقراء، ويقاسمون المستثمرين في تجارتهم ومشاريعهم، أبناء جبران الذين يدعمون مسابقات حفظ القرآن ويسلمون جوائزها بأيديهم تراهم يستمتعون بصرف الملايين في صالات القمار والخمارات في أوروبا وأميركا، يفتتحون صحيفة أو قناة إخبارية في أول الشهر ويعتقلون الكتاب والدعاة المصلحين آخره، والذي يصلي منهم نهار الجمعة خلف إمام المسجد، يقضي ليله مستمتعاً بسهرات الحشيش والرقص خلف العاهرات.

قد يكون الشيخ عبدالكريم وهو يتجول في الأسواق جاهلاً بحقيقة بلده ومجتمعه أو ربما يتجاهل أو لا يريد أن يعرف، كحال أكثر الشيوخ ورجال الدين في السلطنة ماداموا محتفظين بمميزاتهم الاجتماعية والمالية، وفي إحدى ليالي رمضان حيث يحلو للكثير السمر واللقاءات الاجتماعية ويسهل على النساء

تحديداً البقاء خارج منازلهن حتى ساعات متأخرة من الليل، قررت سلطانة بنت شاهين زيارة «سوق الرعية»، وهو أكبر المراكز التجارية في العاصمة وأفخمها على الإطلاق، للترويح عن النفس وتغيير المكان وربما رغبة في الاستعراض كبقية النساء. كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً، والمركز يعج بالزوار بين متسوق ومتفرج وصياد، كان الشيخ عبد الكريم يسير في طرقات المركز التجاري يراقب بدقة هو ومجموعة من حراس الفضيلة، عينه تتحرك في كل الجهات كعين وحش جائع يبحث عن فريسة، هو يراقب كل من يتحرك أمامه وربما مَن خلفه أيضاً، هيئة عبد الكريم بقامته القصيرة ولحيته الكثة وكرشه المتدلي أمامه توحي لبعض المتسوقين بشيء من التوجس أو الخوف، والبعض من الخبثاء يتندرون عليه ببعض التوصيفات والأوضاع الطريفة وهو يسير بين مرافقيه الطويلين. الساعة قاربت على الثانية عشرة ليلاً، وعبد الكريم مازال يبحث عن المجاهرين بالمعصية، ربما تكون امرأة متبرجة أو شاباً يحاول معاكسة فتاة أو بائعاً ينفرد بامرأة داخل محله لغرض ما، أو أي سلوك مشبوه في نظر الناهين عن المنكر الذين يسيئون الظن في غالبية المجتمع ما عدا أبناء جبران وشيوخهم!، في هذه الأثناء توقفت سيارة سلطانة أمام بوابة المركز، الكل يعرفها رجال الأمن وأصحاب المحال التجارية وموظفو المركز ما عدا الشيخ عبد الكريم، نزلت من سيارتها المميزة، بمشيتها المميزة، ورائحة عطرها المميز، لم تلتفت إلى أحد، دخلت السوق ومعها بعض مرافقاتها، كانت سلطانة في قمة أناقتها، تسير بثقة ورشاقة تحير أولي الألباب في متابعتها ووصف جسدها الذي يكاد ينطق بقانون جديد للجاذبية، لم تضطر سلطانة لما اضطرت إليه غزالة من شد وشفط فهي أصغر سناً، ولم يُكتب لها الحمل من قبل لتعاني ترهلات الصدر والبطن لأن

زواجها لم يدم طويلاً، وهي الآن مطلقة من ابن عمتها المدمن على المخدرات، لقد ورثت الجمال عن والدتها، وعن والدها العنجهية والتسلط.

كان عبد الكريم واقفاً في أحد ممرات السوق يراقب، وسلطانة ما زالت تتمشى مع حاشيتها مستمتعة بنظرات الإعجاب من الرجال والنساء على حد سواء، ونظرها على المعروض في واجهة المحال التجارية، وكانت تسير في الممر الذي يتواجد فيه الشيخ عبد الكريم، وعندما اقتربت وهي تسير أمامه في كامل زينتها وهي كاشفة عن وجهها الجميل القاهر لنظرية غض البصر، ناداها بصوت مرتفع لم تعهده من قبل.. تغطي يا امرأة! تجاهلته في الأولى، واستمرت في سيرها المتثاقل. رفع صوته بغضب: اتقي الله يا أمة الله وتستري. توقفت، تبدو منزعجة من تطاوله عليها أمام الناس فهي لم تتعود هذا الأسلوب من ولي أمرها! فضلاً عن صدوره من مواطن لا قيمة له في ميزان عائلتها، عندها التفتت ناحيته بعين الازدراء وبكل ثقة قالت: يا شيخ هون عليك نحن الذين جئنا بكم ونحن الذين نمنحكم السلطة، ونحن الذين نمنعكم فلا تغتر بحالك.. وأكملت سيرها. استغرق الشيخ بضع دقائق ليستوعب الرسالة ويستعيد توازنه الذي اهتز بقوة سهام لسانها وعينيها أيضاً، وباضطراب ظاهر على وجهه سأل الشيخ مرافقيه من هذه؟ فأخبراه بأنها سلطانة بنت شاهين، وفي لحظتها فقط عرف الشيخ حجمه الطبيعي، وعرف أيضاً القيمة الحقيقية لرجال الدين في ميزان عائلة جبران، وعليه كان اقتناعه بصعوبة الاستمرار في مدينة كبيرة كالعاصمة حيث يعيش الجميع طرفاً في لعبة مكشوفة. أسرع بالخروج من المركز حفاظاً على ما تبقى من هيبته وكرامته، وقبل عودته إلى مدينته وعمله السابق قام بزيارة

لمنزل أخيه فاروق وهو قاض في محكمة العاصمة منذ ما يزيد على عقدين، فأخبره بما حصل معه في السوق:

ـ يا عبد الكريم إن ما شاهدته أمر بسيط هنا وهو غيض من فيض، وكنت أعلم أنك ستصدم بالواقع المتناقض هنا خاصة أنك تعيش في بلدة صغيرة لا تصلها أباطيل الكبار وهم سبب كل البلاء في البلاد.

ـ نعم.. ولذلك قررت العودة إلى قريتي، فلا مقام لي في هذه البلدة الظالم أهلها.

ـ لقد أصبت بقرار عودتك، الآن نتناول العشاء معاً، ثم تسافر مع أولادك بحفظ الله.

ـ ....

الشيخ فاروق قاض في المحكمة الكبرى وإمام الجامع الذي بنته سلطانة بنت شاهين تنفيذاً لنذر سابق قطعته على نفسها لمرض خطير أصابها وقد شفيت منه بعد أن تسبب في وفاة والدتها. وقبل إقالته من القضاء ومنعه من الخطابة والإمامة في كل مساجد السلطنة، كان الشيخ فاروق مشهوراً بخطبه الجريئة في طرح قضايا المجتمع، وصراحته في التعبير عن آرائه المناهضة لكل مظاهر الفساد والتعديات الرسمية على حقوق المواطنين من على منبر الجمعة وخلال محاضراته ودروسه الفقهية في المسجد مما أثار حفيظة راعية المسجد وأغضب رئيس الهيئة القضائية الذي حاول مراراً لفت نظر الشيخ فاروق إلى تجنب مخالفة ولي الأمر والتشهير به.

استمر الحديث بين الأخوين حتى ساعة متأخرة من الليل غادر بعدها الشيخ عبد الكريم في رحلة برية بصحبة زوجتيه وأطفاله الخمسة عائداً إلى مدينته الصغيرة المستورة والهادئة. أما شقيقه القاضي فاروق، أو الذي كان قاضياً قبل تحامل مجموعة الفقهاء الرسميين عليه، فقد أصبح لاحقاً أكثر واقعية وتحديداً لأهدافه بعد أن تحقق من صعوبة مواجهة السلطة الدينية المتحالفة مع السلطات الأمنية وقد كانت حينها مشغولة بإصدار بيان فقهي رسمي يجرم ويحرم كل نقد علني ومباشر لأبناء جبران خاصة إذا كان مصدرها رجال دين بحجة أنهم حملة العلم والدين ويفترض فيهم أن يكونوا قدوة لعامة الشعب في طاعة الحاكم والستر عليه، ويصفون كل من يجادل في تفاصيل طاعة الحاكم بأنه صاحب فتنة ولا بد من معاقبته درءاً للمفاسد.

ورغم أن الشيخ فاروق تعرض لمضايقات أمنية وحملات تشويه وتحريض إعلامي مع مجموعة من دعاة الإصلاح السياسي في السلطنة إلا أنها لم تأثر فيه وتحزنه بقدر ألمه وحزنه من موقف رجال الدين المحسوبين على صفات الفضيلة وعناوين السماحة الذين يفترض فيهم دعم مطالب العدالة ودعوات الإصلاح كما كان منهج السلف الصالح. وفي هذا الواقع الديني والسياسي الملوث انتهى الأمر بالشيخ فاروق كحال كل الشخصيات التي حاولت السير عكس الاتجاه ومخالفة السائد، بلا عمل ولا أمل وفي قائمة الاتهام والتجاهل، تلوك سمعته ألسنة المحبين لآل جبران، أما العالمون بالحقائق فهم صامتون لا يتكلمون إلا من أذن له السلطان.

استنتج الشيخ فاروق بعد كل ما حصل له أن فساد السلطة

السياسية في البلاد ما هو إلا نتيجة طبيعية لصمت السلطة الدينية وفسادها وحرص رموزها على مصالحهم الشخصية المرتبطة باستمرار الوضع كما هو وحمايته بقدر الإمكان، ولذلك قرر التعامل مع الواقع ومداواة مشكلته بالتي كانت هي الداء.

بعد عامين من التشهير والإقصاء والحرمان من كل الحقوق والصلاحيات الوظيفية وتحديد الإقامة، بدأ الشيخ فاروق يرسل إشارات لإثبات حسن النوايا إلى السلطات السياسية والأمنية، مع حرصه على ذكر عائلة جبران بكل خير في المجالس الخاصة. استقبلت قيادات الأسرة هذه الإشارات بتقدير، كما رحبت السلطات الأمنية بالسلوك الجديد الوطني لفاروق! كانت المكافأة الأولى السماح له باستئناف الدروس الفقهية في المسجد ثم إمامة الصلاة والخطابة، وبعد التأكد من سلامة وثبات سلوكه وتوجهه السياسي تقرر إعادته للقضاء ولكن في منصب استشاري وليس تنفيذياً كخطوة ثانية، ثم عين عضواً في الهيئة القضائية العليا التي يرأسها الشيخ راضي الذي كان راضياً ومسروراً بالتحول الذي طرأ على شخصية فاروق حيث أصبح أكثر تسلطاً من راضي نفسه، وكان يحرص دائماً على مخالفة آراء راضي وإظهار نفسه باستمرار أنه مصدر أمن واستقرار السلطنة وداعم لسلامة نظام الحكم، إلا أن هذا الرضا والقبول تجاه فاروق لم يستمر طويلاً من قِبل راضي الذي لاحظ بعد فترة زمنية قليلة أن الظهور الإعلامي الذي حققه فاروق بعد عودته للحضن الرسمي فاق بمراحل كبيرة ما حققه هو نفسه خلال أعوامه الطويلة من الولاء لأبناء جبران ودعمه الديني المطلق لحكمهم السياسي والبراءة من مخالفيهم ومعارضيهم، لقد نجح فاروق الجديد في الوصول إلى الدائرة الخاصة المحيطة بالسلطان مرطان بن جبران، وأصبح من المستشارين المميزين بل

ونجح في تأليب السلطان على الشيخ راضي نفسه وإبعاده عن دائرة المحظيين بالرعاية السلطانية، مما سهل إقالته لاحقاً من منصبه القضائي. لقد أراد الشيخ فاروق من كل هذا التحول أن يلقن خصومه ومنتقديه من رجال الدين درساً في السياسة والمبادئ ويثبت لهم أن بإمكانه مسايرة الحاكم وركوب سفينة المنافقين التي كانوا وما زالوا يبحرون بها ولو أراد لبرز فيها بل يمكنه أن يصبح ربانها.

مادلين صحافية متخصصة في شؤون القانون الدولي وقضايا الحريات العامة وحقوق الإنسان، وتعمل لحساب صحيفة أميركية تصدر من واشنطن. وعلى خلفية صدور تقرير منظمة هيومن رايتس واتش الذي رصد انتهاكات حقوق الإنسان بصفة عامة والمرأة على وجه الخصوص في السلطنة واستنكر استمرار التجاهل الرسمي لهذه المشاكل، تقدمت مادلين بتوجيه من إدارتها بطلب لسفارة السلطنة في واشنطن للحصول على تأشيرة زيارة خاصة بهدف إعداد تقرير صحافي لحقيقة أوضاع الحريات العامة وحقوق المرأة في سلطنة جبران. خلال أسبوع جاء الرد الرسمي من وزارة الخارجية بالموافقة وكانت فترة قياسية مقارنة بطلبات مماثلة لصحافيين من جنسيات غير أوروبية، ربما لكونها صحافية وليست صحافياً وربما بسبب جنسيتها الأميركية، ولعلهما السببان معاً، فالمشهور عن أبناء جبران حرصهم على إرضاء الأميركيين،

وتجميل صورتهم السياسية والاجتماعية في الغرب بقدر حرصهم على الاستمرار في الحكم.

حطت الطائرة الأميركية في مطار العاصمة قبيل ظهر الجمعة، وبعد إنهائها لإجراءات الجمارك والجوازات توجهت مادلين لبوابة الخروج وكانت صديقتها ناهد في انتظارها مع سائقها. يبعد المطار عن وسط المدينة مسافة سبعين كيلو متر استغرقت بالسيارة نحو أربعين دقيقة كانت كافية لاستحضار بعض ذكرياتهما الجامعية في واشنطن حيث كانت ناهد تدرس في كلية إدارة الأعمال ومادلين في كلية القانون وكان لقاؤهما الأول في مكتبة الجامعة خلال العام الدراسي الأول لناهد عندما بادرت مادلين بتقديم المساعدة لفتاة مغتربة تشاهدها لأول مرة في المكتبة، بعد ملاحظتها لمعاناة الفتاة وحيرتها في الحصول على ما تحتاج من مراجع إنكليزية ولجهلها بالطريقة المتبعة في استعارة الكتب. عرضت مادلين تقديم المساعدة على ناهد وهي تبحث في المراجع العلمية كما ساعدتها في إتمام بعض الإجراءات الإدارية في الجامعة. قابلت ناهد مبادرة مادلين بكل تقدير وامتنان، وتأكد هذا الشعور لاحقاً من خلال إقدام ناهد على مساعدة مادلين أثناء تلقيها دروساً مكثفة في اللغة العربية، ومنذ ذلك الوقت أصبحتا صديقتين حتى بعد تخرجهما وعودة ناهد إلى بلدها وزواجها والتحاق مادلين بعملها الصحافي الذي فضلته على العمل في مجال المحاماة. ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع الاتصالات والمراسلات بينهما.

لاحظت مادلين في اللحظات الأولى لدخول السيارة التي كانت تقلها ناحية المناطق السكنية في المدينة أن الشوارع شبه خالية

والمحلات مغلقة، فأبدت استغرابها وسألت صديقتها عن السبب. طلبت منها ناهد فتح زجاج النافذة لمعرفة الإجابة، عندها سمعت أصوات خطباء المساجد تتردد في الفضاء تنخفض تارة وتعلو تارة أخرى تبعاً لقوة وحركة الرياح. هذه المظاهر الدينية الفريدة دفعت مادلين لإجراء مقارنة ذهنية بين المشاهد الحاضرة أمامها وبين ما تتذكره من مشاهد دينية سجّلتها شخصياً خلال زيارتها لأكثر من بلد إسلامي ليس فيه شرطة دينية تجبر الناس على إغلاق محالهم والتوجه إلى المساجد، هذه المشاهد أثارت الفضول لدى مادلين ودفعتها للسؤال عن السبب. قالت لها ناهد:

ـ إن رجال الدين هنا يحرصون بقوة على إظهار التدين والطهارة لهم وللمجتمع، بينما في ثنايا المجتمع والسلطة تكمن الأمراض والعلل المزمنة.

ـ الآن تأكدت أني بحاجة إلى معرفة الكثير عن أحوال الرجال قبل النساء، يبدو أن لديكم الكثير من القضايا المثيرة للاهتمام.

ـ تأكدي أنك ستجدين الكثير مما يشبع طموحك الصحافي، فنحن نعيش في مجتمع يخفي الكثير ويهيمن عليه رجال الدين والحكم وسأبذل جهدي لمساعدتك، ستدهشك التفاصيل.

ساد الصمت داخل السيارة، وفي الخارج تتطاول المنابر على بعضها بمصطلحات الترغيب والترهيب. ما زالت السيارة تتحرك باعتدال داخل المدينة، أبقت مادلين نافذتها مفتوحة لعلها تلتقط كلمة مما تصدح به الحناجر. أثناء تحركها بالسيارة بين إشارة خضراء وأخرى حمراء ومن شارع لآخر، تمكنت مادلين من التقاط بعض الكلمات المنثورة في فضاء الجمعة، نفس الكلمات

والمصطلحات، متشابهة ومكررة إلى حد الكآبة: الاختلاط، فتنة النساء، الشريعة، المنظمات التنصيرية، ولاة الأمر حفظهم الله، العلمانيون، البطانة الفاسدة.. ورغم أنها لا تتقن اللغة العربية تماماً، إلا أنها حرصت على متابعة هذه المصطلحات التي سمعتها في شوارع الأحياء الراقية في العاصمة وقد فهمت بعضها وسألت صديقتها عن معنى البعض الآخر.

وفي شارع رئيس اضطر السائق لتخفيف السرعة، الإشارة حمراء يمكن رؤيتها من بعيد، وقبيل التوقف التام عند الإشارة، نظرت مادلين إلى ناحية اليسار وإذا بقصر جميل يلفت نظر كل الراكبين والراجلين عبر الطريق المجاور له، مساحته كبيرة وبناؤه مكلف جداً كما يبدو عليه، ويمكن رؤية رؤوس شجر النخيل من خارج أسوار القصر.

مادلين لصديقتها ناهد وهي تشير بإصبعها:

ـ لمن هذا القصر؟.

ـ إنه مسكن رئيس مؤسسة الإفتاء وكبير رجال الدين في السلطنة؟.

ـ.. صحيح! يظهر أن شيوخكم مرفهون.

الإشارة خضراء، تحركت السيارة، مادلين تلاحظ أمامها منارة عالية دلالة على حجم الجامع وأهميته في العاصمة، نعم كما توقعت.. مادلين تفكر بصوت مسموع:

ـ يا له من مسجد جميل وضخم.

ـ ....

صوت جهوري يصدح في الآفاق.. أيها المسلمون اتقوا الله.. يُسأل المرء عن ماله من أين اكتسبه.. آية المنافق ثلاث.. وكلمات أخرى لم تتمكن مادلين من فهمها.

مادلين مرة أخرى تشير بإصبعها وتسأل:

ـ هل لحجم المسجد دلالة أو معنى في بلادكم؟.

ـ بطبيعة الحال حجم المسجد وشكله يدلّان على القدرة المالية لجهة إنشائه، وحال المنطقة التي يوجد فيها من حيث الوضع الاقتصادي والاجتماعي، وكذلك وضع الشيخ المكلف بإمامة الصلاة والخطابة فيه.

ـ وهل الشيخ الذي سمعناه قبل لحظات في المسجد الكبير له وضع خاص؟.

ـ بالطبع، إنه المفتي.

ـ معقول..... صاحب القصر الكبير؟

ـ ها.. ها.. ها، نعم فهمت.

في نهاية الشارع الرئيس وقبل الانعطاف ناحية الفندق، يظهر قصر فخم إلا أنه أصغر حجماً من قصر المفتي.

مادلين بإشارة إلى القصر وتسأل عن صاحبه:

ـ هل هو شيخ كبير أيضاً؟.

ـ لا، ليس لشيخ أنه قصر وزير الثروات المعدنية.

ـ أوووه.. تقصدين المهندس عامر؟

ـ نعم، هل تعرفينه شخصياً؟

ـ التقيت به أكثر من مرة في مناسبات رسمية في واشنطن، وكان دائم الابتسامة وودوداً مع الصحافيين، وأنيقاً في تعامله، وكان كريماً معي، لكن للأسف أني اكتشفت أنه يسرف في الشراب وقد أخبرته أن والدي أصيب بتليف في الكبد نتيجة إدمانه الكحول وكنا نتوقع وفاته في أي لحظة بعد صراع مرير مع المرض، وقد نصحته بالتقليل منه قدر الإمكان.

ـ مثلما يسرف في عمليات الاحتيال والسمسرة من صفقات النفط والغاز، وبابتسامة ساخرة تستدرك ناهد.. هو بالمناسبة أقل المسؤولين سرقة للمال العام.

وصل الجميع إلى الفندق وكان من فئة خمسة نجوم تديره شركة أميركية، تعمل فيه مجموعة من العمال والموظفين الآسيويين مسلمين وغير مسلمين وقلة من المواطنين. توجهت للاستقبال لإنهاء إجراءات إقامتها، وبعد توديعها لصديقتها صعدت إلى غرفتها لتستريح من عناء السفر الطويل على أمل اللقاء مساء في منزل ناهد التي تنتمي لعائلة ثرية. والدها رجل أعمال بارز في عالم البنوك والاستثمارات المالية في العاصمة وكان قبل عشرين سنة وزيراً للمال والاقتصاد في إحدى الحكومات السابقة في السلطنة. اختارت الولايات المتحدة الأميركية بتشجيع من والدها لدراسة إدارة الأعمال أسوة بأشقائها الذكور الذين سبقوها في الانخراط في مجال دراسة الاقتصاد ومباشرتهم في إدارة الشركات بعد ذلك. وهي الآن تدير قسم الاستثمارات الدولية في شركة العائلة وعضو في مجلس إدارة أكبر المصارف الوطنية ممثلة لعائلتها التي تمتلك نسبة كبيرة من أسهمه.

الساعة التاسعة مساءً، اتصلت ناهد بصديقتها مادلين في غرفتها في الفندق وطلبت منها الاستعداد وأخبرتها أنها سترسل السائق لاصطحابها إلى منزلها خلال نصف ساعة. مادلين نزلت من غرفتها إلى بهو الفندق، تلاحظ حركة كثيفة وزحاماً في مدخل الفندق. يبدو على هيئاتهم أنهم يتبعون جهات دينية، تحدث نفسها.. لا بد أنها مناسبة متعددة الجنسيات، الأشكال والملابس تدل على ذلك، وهي جالسة على أحد مقاعد الانتظار في بهو الفندق مقابل المدخل الرئيس أشارت إلى أحد العاملين ضمن طاقم الضيافة في الاستقبال، جاءها مسرعاً وسألها:

ـ هل تريدين تناول شيء سيدتي؟.

ـ لا وشكراً.. أنا أنتظر السائق للمغادرة، لكن هل يمكنك إخباري عن مناسبة هذا الازدحام الليلة؟

ـ إنه مؤتمر إسلامي دولي كما هو مكتوب على اللوحة الكبيرة خارج مدخل الفندق.

ـ أشكرك، وسأعرف التفاصيل عند خروجي.

وصل السائق إلى الفندق، اتصل بها على هاتفها الخلوي يخبرها بوجوده أمام المدخل، توجهت مادلين مسرعة إلى الخارج وكانت تبحث عن اللوحة لتعرف التفاصيل، نعم إنها هناك، وفي عجالة التفتت لقراءة العنوان باللغة الإنكليزية، وزارة الدعوة الإسلامية تستضيف مؤتمراً دولياً عن حقوق المرأة والحريات العامة في الإسلام، آهاااا تحدث نفسها:

ـ الآن فهمت، إنهم يردون على تقرير منظمات حقوق الإنسان ولكن على طريقتهم.

ـ.......................

وكانت ناهد قد أعدت حفلة عشاء محدودة للاحتفاء بصديقتها في أول زيارة لها للسلطنة إضافة إلى رغبتها في إتاحة الفرصة أمام مادلين للالتقاء ببعض الناشطات والصحافيات ونساء المجتمع السلطاني لتكوين قاعدة معلومات أولية عن الصعوبات التي تواجه المرأة ومتطلباتها الحقوقية ومعوقات الحريات العامة في السلطنة.

منذ اللحظة الأولى لدخولها منزل ناهد ورؤيتها لمجموعة السيدات الجالسات بشكل دائري حول طاولة كبيرة في حديقة المنزل أيقنت أنها البداية العملية لإعداد تقريرها الحقوقي الذي جاءت من أجله. بدأت ناهد بتقديم صديقاتها المواطنات إلى الصحافية الأميركية مع نبذة مختصرة عن سبب زيارتها للسلطنة، ثم أتاحت المجال بعد ذلك للصحافية مادلين كي تتعرف مباشرة إلى معالم المشهد الحقوقي والحريات العامة في السلطنة وخاصة ما يتعلق بوضع المرأة سواء كانت طبيبة أو موظفة بنك تجاري، معلمة، سيدة أعمال أو حتى ربة منزل، هذي التشكيلة بمختلف القدرات والنوعيات كن ممثلات في اللقاء المنعقد في منزل ناهد. حرصت مادلين على الاستماع إلى كل الحاضرات ومناقشة آرائهن، أثناء الحديث، صوت جرس هاتفها الموضوع أمامها على الطاولة، تنظر ناهد على رقم المتصل قبل أن ترد.

ـ إنه رقم أحلام.. ألو.. أهلاً دكتورة، نعم جميعهن حاضرات منذ ساعة، في انتظارك: الدكتورة أحلام تعتذر للتأخير وتقول إنها في الطريق إلينا.

ـ من هي الدكتورة أحلام؟.

ـ إنها ابنة الشيخ مُعين عضو مؤسسة الإفتاء العليا، وإمام وخطيب ثاني أكبر مسجد في العاصمة بعد جامع المفتي الذي رأيته ونحن في الطريق إلى الفندق.

ـ ممتاز، وجودها ورأيها مهم بالنسبة لي.

ـ نعم، وبالمناسبة هي كاتبة في صحيفة العاصمة وأستاذة علم التربية في كلية البنات بالجامعة ولذلك كنت حريصة على دعوتها.

بعد خمس دقائق وصلت أحلام، سلمت على الجميع، الكل يعرفها شخصياً إلا مادلين.

ناهد توجه كلامها إلى مادلين وأحلام:

ـ هذه هي الدكتورة أحلام التي حدثتك عنها.

ـ وهذه مادلين صحافية أميركية من واشنطن.

مادلين تبادر:

ـ أهلاً وسهلاً وفرصة سعيدة، نطقتها بحروف عربية واضحة.

حنان موظفة البنك تستبق رد أحلام وتقول لمادلين:

ـ إن الشيخ معين والد أحلام يعمل مستشاراً لدى البنك الذي أعمل فيه.

ـ هل صحيح أن والدك يعمل في البنك؟.

ـ.. لا، الوالد من كبار الفقهاء في السلطنة، يعمل في مؤسسة الإفتاء وهي تتبع السلطان مباشرة، والواقع أن بعض البنوك تطلب منه استشارات شرعية في بعض التعاملات البنكية، سواء

بشكل فردي أو ضمن لجان وهيئات.

ـ ما هي طبيعة الاستشارات التي يمكن أن يقدمها رجل دين في مسائل القروض والاستثمارات البنكية؟

حنان مرة أخرى:

ـ مهمة المستشار الشرعي في كل البنوك إعطاء الجواز الشرعي لأي عملية أو خدمة بنكية تحتاج لحكم أو رأي فقهي، بمعنى دور الشيخ طمأنة الجمهور وعملاء البنك من الناحية الدينية.

الدكتورة أحلام:

ـ للتوضيح مهمة اللجان الشرعية هي التأكد من مطابقة العمليات المالية في أي بنك لأحكام الدين.

ـ وهل يدفع البنك مالاً لرجل الدين أو المستشار مقابل استشاراته؟.

حنان تجيبها:

ـ بالتأكيد، لأن البنك بوجود هذه الأسماء والتخصصات الدينية على نشراته ومستنداته البنكية يحافظ على مستوى الودائع لديه بل ويكسب عملاء جدداً.

ـ يمكننا القول أنها تشكل مصدراً إضافياً للدخل بالنسبة لرجال الدين؟.

ـ صحيح.. وبابتسامة خبيثة تضيف، الشيخ معين أمده الله بالصحة عضو في أغلب اللجان الاستشارية المالية وهو متواجد باستمرار في أكثر الأنشطة والبرنامج المتعلقة بالاستثمارات المالية.

تحاول ناهد إعادة الحوار للقضية الأساس، وتسأل مادلين إن كانت تريد توجيه أي سؤال أو مناقشة للدكتورة أحلام عن قضايا الحقوق والحريات العامة.

الساعة تجاوزت منتصف الليل، بعض الحاضرات بدأن بالانصراف، بعد نصف ساعة اقتصر الحضور والحوار على مادلين والدكتورة أحلام إضافة إلى ناهد صاحبة المنزل.

ـ بحكم اطلاعك على شؤون الطالبات، إلى أي مدى بلغ الرضا لدى الفتيات في الجامعة عن وضعهن الحقوقي؟ وهل يسمح النظام التعليمي للفتيات بإنشاء جمعيات حقوقية أو أي أنشطة فنية أو رياضية نسائية؟.

ـ الإسلام حفظ للمرأة حقوقها، وولاة الأمر حفظهم الله........

تقاطعها مادلين، وبنبرة استنكارية تحاول ضبطها:

ـ أنا لا أسأل عن حقوق المرأة في الإسلام، ولا أفهم لماذا ترددون كلمة ولاة الأمر مع أن لديكم سلطاناً واحداً (حاولت نطقها كما سمعتها من منابر الجمعة) فقط أسأل عن حقوق المرأة والحريات العامة كما هي ممارسة في الواقع.

ـ رغم أن الواقع يعاني من بعض المعوقات، إلا أنني أرى أن المرأة عموماً تنال حقوقها في القضايا الرئيسة على الأقل.

ـ ماذا تقصدين بالقضايا الرئيسة؟ وهل يمكنك التفصيل في موضوع المعوقات؟.

ـ التفصيل في قضايا حقوق المرأة في السلطنة يحتاج إلى ساعات ولقاءات متعددة، والوقت الآن لا يسعفنا، غداً السبت يوم

عمل، لابد من العودة للمنزل الآن على أمل اللقاء قريباً بإذن الله لاستكمال الحديث.

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، مادلين تقول لمضيفتها ناهد:

- كنت أود سؤالك عن مناظر غريبة شاهدتها خلال قدومي إليك، ولو لم أرها بعيني لم أكن لأصدق بوجودها في بلادكم الغنية بالغاز والنفط، وبما أن الوقت متأخر الآن وأنا أعلم أن لديك عملاً في الصباح، فبالإمكان تأجيل الحديث إلى غد.

- نعم بالفعل لدي أعمال كثيرة غداً صباحاً، ولكن بإمكاننا الالتقاء غداً ظهراً على الغداء وإكمال حوارنا.

- اتفقنا، تصبحين على خير.

-...............

ناهد تتصل بالسائق لتجهيز السيارة وتوصيل مادلين لمقر إقامتها في الفندق.

أثناء ركوبها في السيارة وهي متجهة للفندق، كانت مادلين تسترجع تلك المشاهد العجيبة التي رأتها قبل بضع ساعات أثناء ذهابها لمنزل ناهد واضطرار السائق لاستخدام الطريق الفرعي الموازي للطريق الرئيس ورغم أن ما رأته من مناظر كان خلال الليل إلا أن الأضواء الخافتة المنتشرة في ذلك الحي البائس ساعدتها إلى حد ما على تكوين صورة سريعة عن الواقع المعيشي الحقيقي في السلطنة.

بعد منتصف الليل كانت الشوارع شبه خالية، وصلت مادلين إلى

الفندق خلال عشر دقائق، كان بهو الفندق خالياً إلا من بعض العاملين، سألت أحدهم:

ـ هل انتهى المؤتمر؟.

ـ اليوم كان يوم الافتتاح وغداً تبدأ اللقاءات والاجتماعات.

ـ هل تعلم كم هي مدة المؤتمر؟ وهل يمكن التحدث إلى بعض المشاركين خاصة السيدات؟.

ـ حسب المعلن، يستمر المؤتمر ثلاثة أيام، وسأحاول تبليغ رغبتك في الحوار إلى أكبر عدد من المشاركين.

صعدت مادلين إلى غرفتها ولم تحتج إلا لبضع دقائق لتستغرق في النوم، وعلى غير عادتها لم تستيقظ مبكراً، رن جرس الهاتف، تفتح مادلين عينيها وترفع رأسها عن الوسادة بتثاقل:

ـ ألو، نعم.

ـ صباح الخير، أما زلت نائمة!، إنها العاشرة صباحاً.

ـ صباح الخير ناهد.. نعم، يبدو أني نمت كثيراً.

ـ لا تنسي موعدنا على الغداء، سأرسل إليك السائق الساعة الواحدة ظهراً.

ـ حسناً.. سأكون جاهزة في بهو الفندق، إلى اللقاء.

تغلق مادلين سماعة الهاتف وتغادر السرير لتهيئ نفسها للخروج من الغرفة وتناول طعام الإفطار في مطعم الفندق. تنزل إلى الطابق الأرضي متوجهة نحو المطعم الرئيس، وأثناء دخولها تفاجأ بازدحام غير عادي، أغلب الحضور من الرجال وأكثرهم ملتحون، بمختلف الألوان والهيئات، وعدد قليل من العجائز والمحجبات.

يبادر مدير المطعم باعتذاره لها ويخبرها أنهم اضطروا لتغيير مكان إفطار نزلاء الفندق إلى المطعم الصغير في الطابق الثالث، ومن باب الفضول الصحافي سألته مادلين عن مناسبة هذا الحشد البشري الذي تشاهده، يجيبها الموظف بأنهم ضيوف المؤتمر الإسلامي، وعندما أرادت الانصراف جاءها موظف العلاقات العامة في الفندق:

ـ سيدتي أن إحدى المشاركات من ماليزيا وافقت على إجراء مقابلة معك بعد تناول الإفطار.

ـ شكراً لك، سأنزل مرة أخرى لإجراء المقابلة في الموعد المتفق عليه.

صعدت ناحية المطعم المخصص للنزلاء، بعد انتهاء فترة الإفطار التقتا في ركن هادئ في بهو الفندق وبعد التعرف إليها وإلى خلفيتها العلمية والثقافية سألتها مادلين:

ـ ما هي طبيعة النشاط الذي تقومين به في هذه المؤتمر وما الجهة التي تمثلينها؟.

ـ أنا أمثل اتحاد المرأة الماليزية وهي مؤسسة شبه رسمية تعنى بتنمية المرأة ثقافياً واقتصادياً والدفاع عن حقوقها.

ـ هل يوجد مشاركات غيرك في هذا المؤتمر؟.

ـ أنا المرأة الوحيدة ضمن الوفد الماليزي المشارك، لكن في المؤتمر مشاركات أخريات من باكستان وبعض الدول العربية إلا أن أغلب الحاضرين والمنظمين هم من الرجال مع أن المؤتمر يناقش حقوق المرأة.

ـ ألا تجدين أن المشاركة المحدودة للمرأة في هذا المؤتمر أمر

يدعو للاستغراب؟

ـ نعم.. ربما يكون السبب في طبيعة مكان عقد المؤتمر وثقافة الجهة الداعية له.

ورغم إصرار مادلين على معرفة التفاصيل إلا أن الناشطة الماليزية كانت أكثر حرصاً ودبلوماسية في إجاباتها. وبعد لقاء دام ساعة كاملة مع السيدة الماليزية حاولت مادلين الالتقاء بأحد المنظمين المحليين، إلا أنها فشلت حيث أعضاء اللجنة المنظمة، وكلها من الرجال، رفضوا إجراء أي لقاء مع مادلين بحجة ازدحام جداول أعمالهم واكتفوا بدعوتها لحضور المؤتمر الصحافي في نهاية المؤتمر. صعدت مادلين إلى غرفتها لتضيف إلى تقريرها الصحافي بعض المعلومات التي حصلت عليها من الناشطة الماليزية ومن بعض المنشورات والمطبوعات التي وزعت في قاعات المؤتمر على أمل إضافة المزيد إذا ما تمكنت من حضور المؤتمر الصحافي يوم الاثنين.

قبل موعدها مع صديقتها ناهد بساعة كاملة نزلت مادلين إلى الطابق الأرضي ومعها حقيبتها وبعض أوراقها وآلة تصوير صغيرة. جلست على أحد الكراسي في بهو الفندق وأخذت تراجع ما دونته سابقاً وتحدد ما تريد الكتابة عنه لاحقاً. وبعد نصف ساعة اتصل بها السائق يخبرها بوصوله وهو في انتظارها أمام المدخل الرئيس للفندق، خرجت مادلين لتركب السيارة. ولأنه يوم السبت. أول أيام الأسبوع بالنسبة لسلطنة جبران، عادة ما يكون الطريق مزدحماً خلال فترة الظهيرة كحاله خلال ساعات الصباح الأولى. مكوثها الطويل في السيارة بسبب ازدحام الطريق والتوقف المتكرر أمام الإشارات أتاح لها فرصة تذكر المناظر الليلية التي شاهدتها

في ذلك الحي الواقع جنوب قصر المفتي وبعض قصور العلماء والوزراء الواقعة في حي الشطّار الراقي الذي يفصله عن ذلك التجمع البشري التعيس شارع التوحيد، عندها سألت مادلين السائق عن إمكانية المرور مرة أخرى بنفس الحي الفقير الذي رأته في الليلة الماضية، أجابها السائق:

ـ تقصدين حي الصابرين؟

ـ لم أكن أعرف أن هذا اسمه، لكن يبدو أنه اسم على مسمى، وهل تعرفه جيداً؟

ـ نعم، أعرف ذلك الحي منذ عشرة أعوام. كنت أرافق الشيخ عندما يذهب إلى هناك في المناسبات الدينية خاصة في رمضان والأعياد لتوزيع الصدقات.

السائق يغير مسار السيارة من الطريق الرئيس المزدحم إلى شوارع فرعية توصل إلى الحي المطلوب، تسأله مادلين:

ـ من تقصد بالشيخ؟.

ـ أقصد السيد عبدالله رجل الأعمال الذي أعمل عنده منذ اثنتي عشرة سنة، ثم انتقلت للعمل لدى ابنته السيدة نادية بطلب منها عقب زواجها وانتقالها إلى بيت مستقل.. لقد وصلنا مدخل الحي هل تريدين مكاناً معيناً فيه؟

ـ أريد التجول بين منازل الحي، ولكن أرجو أن تسير على مهل حتى أتمكن من التقاط الصور ثم ننصرف إلى موعدنا مع نادية.

مع كل جولة بين المنازل ودورة في أزقة الحي تكتشف مادلين حجم التناقض والخلل بين الشعارات المعلنة في الإعلام

والمساجد وبين الحقائق الواقعة اجتماعياً ودينياً في سلطنة جبران. وبعد انتهائها من مشاهداتها والتقاطها ما تحتاج له من صور للمساكن المتهالكة ولأهلها الفقراء ولأزقتها الضيقة والقذرة، توجهت مادلين مع السائق إلى مكتب صديقتها ناهد التي كانت تنتظرها لتذهبا إلى أحد المطاعم المشهورة في قلب العاصمة. أثناء تناول طعام الغداء كانت مادلين تحدث صديقتها عن المناظر الغريبة التي شاهدتها وصورتها، مادلين كانت مندهشة بل مصدومة من هول ما رأت من حال بائس لمواطنين لا تبعد مساكنهم كثيراً عن قصور أصحاب الفضيلة والسمو في عاصمة السلطنة الغنية بالثروات المعدنية والنفط، ترد عليها ناهد:

ـ ما رأيته لا يمثل إلّا جزءاً يسيراً من واقع سائد في أغلب مناطق السلطنة، وستندهشين أكثر لو علمتِ أن نصف مساحة حي الصابرين مملوكة للمفتي والنصف الآخر لسلطانة ابنة الوزير شاهين.

ـ معقول!! ومن أين حصلا عليها؟

ـ كالعادة، منحة سلطانية، وبتفصيل أكثر، إن تلك الأرض التي يسكنها عشرات الآلاف من المواطنين ويتوارثونها جيلاً بعد جيل ليس لها صكوك رسمية حديثة بل يمتلك سكانها أوراقاً قديمة تثبت أنها ملك لآبائهم وأجدادهم قبل تواجد عائلة جبران في المنطقة، ولذلك هي حالياً على الأوراق الرسمية ملك للحكومة أي أمرها بيد السلطان الذي أصدر قراراً بمنحها لمجموعة من أفراد عائلته وبعض الشيوخ المقربين، وعلى رأسهم المفتي ورئيس الهيئة القضائية، وبعد عمليات بيع وشراء وصفقات بمئات الملايين اقتصرت ملكيتها على

شخصيتين هما المفتي وسلطانة بنت شاهين بن جبران.

ـ وسكان الحي.. ما هو مصيرهم؟

ـ رغم أن أغلبهم تحول رسمياً من مالك لمستأجر يحاول بصعوبة دفع الإيجارات للمالكين الجدد، إلّا أنهم مهددون أيضاً بالطرد، وقد أبلغوا بضرورة إخلاء الأرض لأن الشيخ والأميرة اتفقا مع شركة أميركية وأحد البنوك المحلية على إقامة مشروع تجاري ضخم على نفس الأرض.

ـ إذن ستكون مشكلة اجتماعية وإنسانية كبيرة.

ـ نعم، إذا لم يجدوا حلاً عادلاً لهؤلاء السكان ستكون كارثة إنسانية وليست مجرد مشكلة.

بعد الغداء رجعت ناهد إلى مكتبها فيما توجهت مادلين إلى الفندق لتأخذ قسطاً من الراحة ولمتابعة بعض القنوات الفضائية، وعند الثالثة ظهراً بدأت في استكمال تقريرها الصحافي وإضافة قصة حي الصابرين.

بعد ثلاث ساعات من العمل المتواصل نظرت مادلين لساعة يدها لتفاجأ بالوقت، آووه! إنها السادسة والنصف، تركت ما بيدها من أوراق، أبعدت نظارتها الطبية عن عينيها المجهدتين، أسندت ظهرها إلى الخلف وهي مغمضة العينين، لحظات الاسترخاء لم تدم طويلاً، كان صوتاً حاداً مفزعاً بعكس الصوت الجميل المؤثر الذي سمعته مادلين في أذان الليلة السابقة، تحدث نفسها:

ـ كان الصوت أكثر هدوءاً وصفاءً، ما الذي تغير! يبدو أن التحول للأسوأ سمة غالبة على الحياة هنا.

ـ..............

تركت مادلين مقعدها وتوجهت ناحية النافذة المطلة على المسجد المجاور للفندق أو جامع سلطانة كما يسميه أهل العاصمة، وقفت تراقب المتوجهين ناحية المسجد، البعض من المشاركين في المؤتمر الإسلامي يغادرون الفندق للصلاة في المسجد، وآخرون من سكان الحي يأتون سيراً على أقدامهم، والبعض من عابري السبيل يوقفون سياراتهم في الساحات المحيطة بالمسجد، وهي تراقب ذلك المشهد الغريب بكل تلك التفاصيل على الأقل بالنسبة لها، وتحدث نفسها: إنه يوم السبت والحركة حول المسجد تزداد كثافة، يبدو أن هناك مناسبة ما، البعض يدخل ويخرج من مكان الوضوء، قلة من المصلين يحرصون على وضع أحذيتهم في الأدراج المخصصة بجانب المدخل والغالبية يتركونها بشكل فوضوي على مدخل المسجد، ومن شرفتها المطلة على مساحة واسعة من المنطقة شاهدت سيارة نقل صغيرة متهالكة تقف بعيداً على جانب الشارع الرئيس لتنزل منها امرأة كما بدت للوهلة الأولى ملتحفة بالسواد تحاول بصعوبة الإسراع في خطواتها باتجاه المسجد رغم وجود طفل على كتفها يزيدها حملاً مضاعفاً على جسدها النحيل.

ما زالت مادلين واقفة تتابع المشهد، وتلك المرأة تجاهد نفسها للوصول إلى المسجد قبل انتهاء الصلاة، إلّا أنها لم تقصد مدخل النساء كما كانت تتوقع مادلين بحسب معلوماتها السابقة عن العادة المتبعة في الفصل بين النساء والرجال، بل توجهت لمدخل الرجال وبمجرد وصولها للمسجد أقيمت صلاة المغرب، وضعت الطفل وهو نائم أو مخدر على الأرض على يمين الخارج من المسجد ثم جلست بجواره، نعم.. إنها متسولة لا تختلف عن مئات النساء والأطفال الذين اعتاد المواطنون وزوار العاصمة وباقي

مدن السلطنة رؤيتهم يومياً يتسولون عند إشارات المرور والمساجد وأمام قصور العائلة الحاكمة في بلد الغاز والنفط، والناهون عن المنكر يجولون بسياراتهم للتأكد من إغلاق المحال التجارية ومن توجه العاملين فيها لأداء الصلاة، يتعالون على الناس من داخل سياراتهم بمكبرات الصوت، ويستقوون بالسلطات الأمنية في مخاطبة الآخرين وإخضاعهم، وبأصوات آمرة زاجرة يسمعها كل من في الشارع.. الصلاة.. الصلاة، وبعد أن يتأكدوا من إغلاق كل المحال المجاورة للمسجد يعودون بسياراتهم إلى مكاتبهم وبعضهم إلى أمكنة أخرى لا يعلمها إلا الله. لاحظت مادلين من غرفتها العلوية المطلة على المنطقة المحيطة بالمسجد أن الآمرين بالبر لا يتوجهون للمسجد كحال المأمورين!، حدسها الصحافي ألح عليها لكي تسجل تلك المشاهد العجيبة فوتوغرافياً كما سجلتها تحريرياً.

عادت مادلين إلى مقعدها لتستريح من وقوفها أمام الشرفة، ومن على مقعدها أخذت تتابع نشرات الأخبار في القنوات الفضائية، ريثما تنتهي شعائر صلاة المغرب في المسجد وكانت البداية بالقناة الثانية الرسمية التي تذيع نشرتها الإخبارية باللغة الإنكليزية.

استقبالات وقرارات. لا جديد في الطريقة والمضمون، ورغم أنها قرأت كثيراً مما كُتب في أميركا عن النظامين السياسي والديني لسلطنة جبران إلا أن وجودها الفعلي في السلطنة أضاف إلى ثقافتها ومعلوماتها بعض التفاصيل السياسية والاجتماعية والدينية التي يجهلها أغلب الغربيين، ولذلك تظهر حرصاً مضاعفاً على معرفة الصورة التي يفضل أصحاب السلطتين السياسية والدينية الظهور بها على شاشات التلفزيونات والمحافل العامة. السلطان

المعظم يستقبل رجال دين، ويتحدث إلى بعضهم، ابتسامات متكلفة وأحاديث مصطنعة بين أبناء جبران لتكذيب ما يشاع في ديوانيات المواطنين والإعلام الغربي عن تفاقم الخلافات داخل الأسرة الحاكمة على تقاسم السلطة والثروة.

الخبر الثاني الذي لفت انتباه مادلين هو عديد الأحكام القضائية التي صدرت ضد مجموعة من المواطنين والمقيمين، قطع رؤوس وأيد، جلد مواطنين ووافدين، وخاتمة الأحزان القضائية الحكم على فتى في الصف الثالث ثانوي بالجلد والتغريب «النفي» بتهمة ممارسة الزنا التي اعترف بها أمام القاضي، وأحكام متعددة بالفصل من الوظائف والحبس سنوات وسنوات من الخوف والمعاناة، ورغم ذلك كله معدلات الجريمة في تزايد مستمر. تحاول مادلين تخيل هذا الواقع ومقارنته بما شاهدته في أميركا أو سمعته عن بعض رموز السلطة السياسية والدينية من أحوال وسلوكيات لا تنسجم مع شعاراتهم المعلنة، إلا أنها لم تتمكن حتى لحظتها الراهنة من تحديد مرجعية ثابتة قاطعة لكل ما يجري، وما زالت لديها علامات استفهام كثيرة عن موقف علماء الدين تجاه ما يتردد بالفعل والقول عن صعوبة تطبيق الأحكام القضائية والدينية على أبناء جبران رغم مسؤوليتهم عن كثير من جرائم القتل ونهب المال العام إضافة إلى ارتكابهم الأفعال المنكرة ضمن المعتقد السائد في السلطنة.

لم تستغرق وقتاً طويلاً في إلتفكير، تركت مقعدها وتوجهت للنافذة لعلها تظفر بحدث مثير، أو صورة معبرة أو عابرة تصلح لدعم تقريرها الصحافي. انتهت صلاة المغرب ومادلين ما زالت تجهل سبب ذلك التدفق البشري للمسجد في يوم غير الجمعة،

وتنتظر حدوث ما يفسر لها الحال، المرأة الجالسة خارج المسجد أيضاً تنتظر خروج المصلين لا لمعرفة أو علم بل للحصول على ما تجود به أيادي المحسنين. وبين الانتظارين بدأ الشيخ فاروق درسه الفقهي والذي خصصه قصداً في هذا اليوم للحديث عن حقوق الإنسان في الإسلام وتأكيد الرعاية التي توليها حكومة صاحب العظمة لصيانة حقوق المواطن وحفظ مصالحه وكرامته!.

مادلين لم تعرف ما يدور بالمسجد لأن المكبرات الخارجية أغلقت بعد انتهاء الصلاة كالعادة، المصلون وأغلبهم جاء ليسمع المحاضرة ظلوا في المسجد، وفي الخارج أطفال يبيعون علب المناديل وآخرون يمسحون زجاج السيارات في الموقف المجاور للمسجد، وبعض الملتحين يفترشون الأرض ببعض الأشرطة والكتيبات الدينية مع بعض العطور الزيتية لتعم البركة، وعامل آسيوي لم يتسلم راتبه منذ شهور يقف أمام مدخل النساء يتظاهر بتنظيف المكان على أمل الحصول على بعض الإحسان من الخارجات من المسجد، وحتى اللحظة مادلين ما زالت تنتظر الخبر، والمرأة المتسولة تنتظر الصدقات، ورجل حائر يبحث عن حذائه المسروق.

في صباح اليوم التالي اتصلت ناهد هاتفياً بمادلين في غرفتها:

ـ لقد وصلتني دعوة لحضور حفلة تقيمها الجمعية الخيرية النسائية في العاصمة على شرف السيدة غزالة، الدعوة لشخصين، هل تريدين مرافقتي؟.

ـ هل تقصدين غزالة زوجة وزير الأمن؟.

ـ نعم إنها هي، وهل تعرفينها؟.

ـ لم تكن معرفة شخصية لكني شاهدتها مرتين تقريباً، في الأولى تحدثنا لدقائق فقط وفي الثانية رأيتها من بعيد في أحد المراكز الطبية، ولذلك أنا مهتمة بحضور هذا الاحتفال لعلي أسجل إضافات جديدة في تقريري الصحافي.

ـ إذن اتفقنا وسآتي إليك تمام الساعة الثامنة مساء لاصطحابك، فكوني جاهزة.

عندما أنهت مادلين مكالمتها مع ناهد كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً، بعد ذلك بوقت يسير غادرت غرفتها لتناول إفطارها، وهي في طريقها لمطعم الفندق رأت محمد خان موظف الاستقبال فتوجهت إليه بالسؤال:

ـ ما هو سبب التوافد الكثيف على المسجد المجاور ليلة البارحة؟.

ـ إنه الشيخ فاروق إمام المسجد يلقي محاضرة أسبوعية في مثل هذا الوقت، ولولا مشاركة أحد الدعاة المشهورين شعبياً في هذا اللقاء لما حضرت كل هذه الأعداد.

بعد فراغها من تناول الطعام صعدت إلى غرفتها لمتابعة تقريرها واستكمال بقية المعلومات، في هذه الأثناء تلقت مادلين اتصالاً على هاتف غرفتها من الملحق الإعلامي في السفارة الأميركية في العاصمة للاطمئنان إليها ولإبداء استعداد السفارة لتقديم أي مساعدة أو دعم تحتاج له خلال وجودها في السلطنة، وذكرها برقم الطوارئ المتاح بصفة مستمرة للمواطنين الأميركيين الوافدين للزيارة أو العمل. بعد شكرها وتقديرها لهذا الموقف والاتصال قالت له مادلين إنها تفضل مواصلة عملها بعيداً عن التدخلات الرسمية، وإنها تفضل الاستعانة بعلاقاتها الشعبية.

بداية النهاية

علمت مادلين أن صباح غد الاثنين سيعقد لقاء صحافي لمناسبة انتهاء فعاليات المؤتمر الإسلامي الحقوقي في الفندق، فبدأت بإعداد بعض الأسئلة لطرحها خلال المؤتمر. الفندق يعج بنزلاء من مختلف الجنسيات وبعشرات الصحافيين والإعلاميين الآسيويين والبعض من الشرق الأوسط.. إلا أن وجود مادلين له وقع مختلف.

خلال بضعة أيام بدأ العاملون في الفندق يتناقلون خبر وجود صحافية وصلت من واشنطن، وبعد أن شاهدها البعض وتحدث معها البعض الآخر ذاع صيتها بين العاملين الآسيويين، ربما لتعاملها البسيط، وقد يكون لابتسامتها وتواضعها، والأكيد لكونها صحافية وتحديداً أميركية، وكان من ضمن المهتمين المتتبعين لأخبار الضيفة الجديدة الفلبيني دونالد وهو أحد العاملين في

مطبخ الفندق منذ خمسة أعوام، عندما وصله خبر وجود صحافية أميركية تَذَكر قضية صديقته الممرضة روجينا المعتقلة بدون محاكمة في سجن النساء في جنوب العاصمة حتى الآن. بادر دونالد إلى الاتصال بغرفة مادلين وعرفها بنفسه وطلب مساعدتها في إثارة قضية صديقته في وسائل الإعلام، ووافقت مادلين على لقائه لاحقاً أثناء تناولها الغداء في المطعم. تمكن دونالد قبل لقائه المتفق عليه من كتابة ما لديه من معلومات تخص قضية صديقته في ورقة سلمها إياها أثناء المقابلة السريعة التي لم تزد على عشر دقائق هي كل ما حصل عليه من مديره المباشر. بعد فراغها من تناول الغداء رجعت مادلين لغرفتها وكانت مهتمة جداً بقضية سجن النساء التي طُرحت أمامها عرضاً بدون ترتيب أو معرفة مسبقة.

كانت روجينا تعمل ممرضة في إحدى عيادات الإدمان في أفخم المستشفيات الأهلية في العاصمة، وكانت تتولى الرعاية المباشرة لـ«زهور» المدمنة على الهيروين وهي الابنة الصغرى لضاحي حاكم العاصمة وشقيق الوزير سهران، وبعد ستة أشهر من العلاج فضل والدها استكمال علاجها في القصر لما بلغه أن هناك شاباً يحاول منذ فترة زيارتها في جناحها، وطلب ضاحي من المستشفى أكفأ ممرضات القسم لمرافقتها وتقديم الرعاية الطبية المباشرة لها في المنزل. وقع الاختيار على روجينا لقربها من زهور ولمعرفتها بتفاصيل برنامجها العلاجي. خلال أيام انتقلت الممرضة للإقامة في منزل العائلة، وبعد ثلاثة أشهر من وجود روجينا في القصر، أصيبت زهور بانهيار وغيبوبة كاملة بسبب تعاطي كمية كبيرة من المخدرات كما أظهرت التحاليل، وألقي القبض على روجينا بتهمة ترويج المخدرات، وهي تنفي هذه التهمة وتؤكد أن

لا علاقة لها بما حصل لمريضتها. هذه القصة قرأتها مادلين لاحقاً في الورقة التي تسلمتها من دونالد، وعندما سألته أثناء المقابلة عن عدد المرات التي زار فيها صديقته في السجن أو حاول السؤال عنها؟ أخبرها دونالد أن الصداقة هنا بين الرجل والمرأة تعدّ جريمة وقضية مخلة بالأخلاق، إنهم لا يعترفون بالصداقة الواضحة العلنية بين الجنسين ولكنهم يمارسون العلاقات التي تتجاوز الصداقة في السر وخلف الأبواب المغلقة، ولذلك لم أتجرأ على السؤال عنها فضلاً عن زيارتها.

كما لفت انتباهها ما ذكره دونالد نقلاً عن صديقته أن في سجن النساء عشرات الحالات الإنسانية المثيرة لنساء ما زلن محرومات من حقوقهن في الدفاع عن أنفسهن منذ سنوات.

هذه القصة فتحت أمام مادلين رافداً جديداً في تقريرها الصحافي وقررت أنها لن تغادر السلطنة حتى تعرف تفاصيل تلك القضايا أو بعضها على الأقل. مع مغيب شمس يوم الأحد شارفت مادلين على الانتهاء من تقريرها اليومي، وأخذت تستعدّ لمرافقة صديقتها إلى الاحتفال الخيري. غادرت مادلين الفندق بصحبة ناهد، سلك السائق الشارع الفرعي الوحيد الذي يربط الفندق بالطريق العام وبينهما يقع جامع سلطانة، لاحظت مادلين تجمهر مجموعة من الناس بقرب المسجد.

مادلين تظهر اهتمامها وتسأل:

ـ ما هذا؟

ـ لا أعلم، لم نلاحظهم أثناء مرورنا من هنا قبل ربع ساعة.

ناهد للسائق:

ـ هل يمكنك معرفة سبب التجمهر؟.

ـ نعم، سأحاول.

أوقف جعفر السيارة جانباً وذهب لاستيضاح المشكلة، بعد بضع دقائق عاد جعفر:

ـ وجدوا طفلاً رضيعاً متروكاً أمام باب المسجد، ويبدو أن شخصاً ما وضعه قبل فترة قصيرة بحسب إفادة حارس المسجد.

ـ ظاهرة اللقطاء بدأت في التزايد خلال الأعوام الخمسة الأخيرة، حتى أصبحت خبراً مألوفاً هنا، وقد اتفقتُ مع مجموعة من المتخصصات في الرعاية الاجتماعية وسيدات المجتمع على إنشاء جمعية لرعاية اللقطاء، وخلال الشهر القادم بعد تأسيس المكان سنبدأ بحملة إعلامية للتعريف والتوعية.

مادلين بعد صمت لافت تسأل صديقتها ناهد:

ـ هل هناك إجراءات معينة أو شروط لأتمكن من زيارة سجن النساء؟

ـ بالتأكيد تحتاجين لتصريح أمني، وتنسيق مع وزارة الإعلام لصفتك الإعلامية، ولكن ما الذي جعلك تفكرين في هذا الموضوع فجأة؟

ـ لقد وصلتني بعض المعلومات عن حالات إنسانية وقانونية من داخل السجن تحتاج لمتابعة ودعم، ففكرت في القيام بزيارة لاكتشاف حقيقة وضع المرأة داخل السجن، وإلى أي حد يختلف وضعها عن الخارج.

ـ أعتقد أن كونك صحافية ومستقلة في نفس الوقتقد يصعّب الموافقة على طلبك وقد نحتاج إلى إجراء اتصالات رسمية طويلة ومعقدة، لكننا سنجرب أقرب الطرق في بلادنا للحصول على ما نريد.

ـ وما هي هذه الطريقة؟ أتمنى أن لا أحتاج إلى تدخل أي جهة رسمية أميركية.

ـ لا، لا تحاولي إشراك أي جهة رسمية في الموضوع حتى لا تتعقد الإجراءات، سنبدأ أولى محاولاتنا خلال الحفل، سأقدمك شخصياً للسيدة غزالة ثم نفاتحها في طلبك، وأنا متأكدة إذا ما اقتنعت بطلبك يمكنها بمكالمة هاتفية أو إشارة أنثوية في جلسة خاصة مع معالي الوزير، فتح الأبواب المغلقة أمامك، وتسهيل كل الإجراءات الروتينية.

ـ بهذه البساطة! بكلمة من زوجة وزير يمكن تخطي القانون واختصار الإجراءات؟

ـ هذا منهج سياسي قديم وطريقة حكم في هذا البلد، ويمكن اختصاره بكلمة نفوذ أو واسطة.

ـ هل لأنها امرأة؟ أم لأنها زوجة وزير؟.

ـ بل لأنها زوجة أبرز أبناء جبران وهو المسؤول الأول عن أمن عائلته، أبناء جبران هم الذين وضعوا الأنظمة والقوانين وهم وحدهم الذين يسمح لهم بتجاوزها بلا مساءلة أو عقاب، لأنهم فوق الجميع، أو كذلك يعتقدون.

وصلت سيارة ناهد إلى مكان الحفل، وبقرب مدخل الجمعية نزلت ناهد مع صديقتها وقدمت بطاقتي الدعوة الخاصة بهما،

وبعد الخضوع لإجراءات التفتيش دخلتا إلى الصالة. اختارت ناهد طاولة في المقدمة قرب المكان المخصص لجلوس غزالة التي عادة ما تتأخر في الظهور في أي مناسبة لاعتبارات أمنية وغالباً لدواعي التميز والوجاهة.

رغم أن اللجنة المنظمة أكملت كل استعداداتها وحضر الجميع طبقاً للدعوات المحددة بالأسماء ولم يتوقع حدوث أي عائق أو طارئ، إلا أن الافتتاح تأخر عن موعده حتى ظهرت على وجوه المدعوات وسلوكهن علامات الملل والضجر بسبب طول فترة انتظارهن، فبدأ الهمز واللمز كعادة بنات حواء في مثل هذه التجمعات، نسوة في القاعة يتضاحكن على أخرى بدينة، وامرأتان تتهامسان على شكل فستان ثالثة ولونه، وفتاة مشغولة بتبادل الطرق الجنسية على هاتفها المحمول غير عابئة بما يدور حولها.

كان الموعد المحدد في بطاقات الدعوة لبداية الحفل تمام الساعة التاسعة مساءً، إلّا أن السيدة غزالة لم تحضر إلّا بعد الساعة العاشرة من باب خلف المنصة المخصصة. ظنت المدعوات أن تأخرها نوع من البروتوكول أو التميز الذي تحرص عليه في أغلب المناسبات التي تظهر فيها. البداية المعتادة في مثل هذه المناسبة هي تلاوة القرآن الكريم، الجميع ينتظر المقرئة، لقد تأخرت الفتاة المكلفة بقراءة الآيات الافتتاحية، مديرة الجمعية تشعر بقلق وتستدعي إحدى المنظمات تسألها عن سبب التأخير، الموظفة تخبرها أن الطالبة التي جيء بها من جمعية تحفيظ القرآن غلبها النوم لتأخرنا في الافتتاح وقد أيقظناها وستغسل وجهها وتبدأ القراءة خلال دقائق. بعد القراءة ألقت مديرة الجمعية كلمة

ترحيب براعية الجمعية والحفل السيدة غزالة ثم قدمت عرضاً تاريخياً للجمعية ومنجزاتها، وبعدها ألقت غزالة كلمة موجزة أمام الحاضرات ثم فُتح باب النقاش والأسئلة، وقبيل الثانية عشرة ليلاً دعت مديرة الجمعية ضيفتها غزالة التي بدا عليها الإرهاق إلى التوجه للبوفيه المعد لهذه المناسبة، وأثناء توجهها لصالة الطعام تقدمت ناهد للسلام على غزالة التي بادلتها السلام بحفاوة بالغة لمعرفتها السابقة بها، ثم قدمت ناهد صديقتها مادلين للسيدة غزالة التي أظهرت اهتماماً مبالغاً فيه بالصحافية الأميركية واصطحبتها للجلوس بقربها على طاولة الطعام. بدأت مادلين بإبداء رغبتها في إجراء لقاء صحافي مع غزالة تتناول فيه حقوق الإنسان ووضع المرأة في السلطنة، رحبت غزالة بهذه الدعوة القيّمة، إلا أنها طلبت تأجيلها لحين زيارتها لنيويورك بعد أسبوعين حيث تعتزم غزالة إجراء فحوصات في المركز الطبي بنيويورك وستكون الفرصة سانحة لزيارة الصحيفة وإجراء المقابلة في وقت واحد، ثم جاء دور الطلب الحقيقي المقصود من هذا اللقاء وهو توسط غزالة للحصول على تصريح بزيارة سجن النساء بالعاصمة، وكان الاهتمام بادياً على ملامح غزالة التي ظلت تستمع لمبررات مادلين ودوافعها للقيام بهذه الزيارة. أكدت غزالة أنها ستهتم بهذا الموضوع وستجري بعض الاتصالات وخلال يومين سترد على طلبها. شكرتها مادلين ثم استأذنتها لالتقاط صورا شخصية وجماعية على طاولة الطعام، وبعد دقائق غادرت غزالة الحفل قبل أن تنهي طعامها.

وفي نهاية الحفل التقت مادلين بالدكتورة أحلام التي كانت ضمن المدعوات وبادرتها بالحديث:

ـ كنت متأكدة أنني سألتقي بك في مثل هذه المناسبات.

ـ لقد أخبرتني ناهد أنك ستأتين معها، وبالمناسبة أنا ما زلت أتذكر الموضوع الذي كنا نتحدث فيه عند ناهد وما زلت عند وعدي بترتيب لقاء آخر يمكن أن يكون خلال اليومين المقبلين.

ـ أشكرك لاهتمامك وأتمنى أن لا يتأخر اللقاء لأني سأغادر إلى أميركا يوم الجمعة.

ـ سأحاول في أقرب وقت، وحتى إذا سافرت سنظل على اتصال بيننا وأنا على استعداد لتقديم أي مساعدة تحتاجين إليها. بهذه المجاملة السريعة أنهت أحلام لقاءها بمادلين بدون أن تظهر حقيقة موقفها الذي اتخذته بعدما طلب منها والدها مُعين بالامتناع عن أي تصريح أو لقاءات صحافية مع وسائل الإعلام خاصة الأجنبية خوفاً على المنصب الديني الرفيع المرشح لشغله قريباً، ومع أن أحلام تعتقد أن قلق والدها لا مبرر له إلا أنها فضلت الرضوخ لرغبته والامتناع عن أي حوارات تتطرق للشأن العام ولو من بعيد.

وصلت مادلين إلى الفندق متعبة لأنها لم تتعود طريقة الاحتفالات في السلطنة التي تمتد إلى ساعات متأخرة. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة فجراً ولا بد من النوم في أسرع وقت حتى تتمكن من الاستيقاظ قبل الساعة العاشرة المحددة للمؤتمر الصحافي الذي تعقده اللجنة المنظمة للمؤتمر الإسلامي لحقوق المرأة.

الساعة التاسعة والنصف صباحاً ومادلين ما زالت نائمة، صديقتها ناهد تتصل بها على هاتف غرفتها بعدما يئست من إجابتها على هاتفها المحمول، المحاولة الثالثة انتبهت مادلين لصوت الهاتف،

تستيقظ بتثاقل وتمد يدها لترفع سماعة الهاتف.

ـ ألووو.. أهلاً ناهد.

ـ صباح الخير، لقد تجاوزت الساعة التاسعة والنصف، أما زلت نائمة!.

ـ صباح الخير، اتصالك جاء في وقته، لا بد من الاستعداد، لقد حان موعد المؤتمر.

ـ ما هو برنامجك لهذا اليوم؟

ـ ليس لدي موعد محدد غير حضور المؤتمر، بعد ذلك يمكن تحديد برنامج لباقي اليوم.

ـ حسناً، سأتركك الآن لتستعدّي للمؤتمر وموعدنا على الغداء الساعة الواحدة ظهراً، سأتصل بك لاحقاً لتأكيد الموعد.

خلال عشر دقائق نزلت مادلين إلى القاعة الكبرى في الطابق الأرضي حيث كانت الصالة مكتظة بالصحافيين الذين حضروا مبكراً. رغم حرصها على الجلوس في المقدمة إلا أنها لم تجد مكاناً شاغراً إلا في المقاعد الخلفية، ومن الصف الأخير بجانب كاميرات التصوير بدأت تتابع كلمة مسؤول العلاقات الإعلامية في وزارة الدعوة الإسلامية الذي يتولى إدارة هذا المؤتمر الإعلامي، وكان يجلس في منتصف المنصة المقابلة للإعلاميين وعلى يمينه وكيل وزارة العدل للشؤون القانونية ورئيس اللجنة «الحكومية» الوطنية لحقوق الإنسان وعلى يساره الأمين العام لاتحاد الدول الإسلامية.

بعد ترحيبه بالحضور الإعلامي قال مدير المؤتمر إنه لدواعي السفر والالتزامات الرسمية الأخرى سنكتفي بعشرة أسئلة فقط ثم

نختتم المؤتمر. رفع أغلب الصحافيين أيديهم رغبة في طرح أسئلتهم وكان مدير المؤتمر يختار من الصفوف الأولى ثم التي تليها حتى وصل دور السؤال الأخير حسب التحديد المسبق. مكان جلوس مادلين في المؤخرة وخلف عشرات الصحافيين بمختلف أحجامهم حرمها من إبراز نفسها وطرح أسئلتها إلا أنها تداركت المشكلة في اللحظة الأخيرة حيث وقفت وبادرت بتقديم نفسها بصوت عال طالبة السماح لها بطرح أسئلتها، قَبِل مدير المؤتمر السماح لها بسؤال واحد فقط تقديراً لاهتمامها بهذا المؤتمر.

بعدما شكرت مادلين القائمين على المؤتمر:

ـ ما هو سبب غياب المرأة عن إدارة وتنظيم المؤتمر خاصة المواطنات؟، الشق الثاني ما هو دور وزارة العدل في رعاية ومتابعة حقوق النساء السجينات في سجون السلطنة؟.

ـ أنتِ طرحت سؤالين لا سؤالاً واحداً لكن بما أنك السائل الأخير سنعدّه سؤالاً واحداً. وبصفتي مسؤولاً في اللجنة المنظمة للمؤتمر أؤكد أن للمرأة دوراً فعالاً في كل مراحل التخطيط والتنظيم لهذا المؤتمر، صحيح أنه غير ظاهر للإعلام ولأسباب اجتماعية ظل دورهن خلف الكواليس إلا أنهن لم يكنّ غائبات أو مستبعدات. أما سؤالك الثاني فسيجيب عنه سعادة وكيل وزارة العدل.

ـ الوزارة ترسل مفتشات عدليات لزيارة السجون النسائية بانتظام، وتعرض تقاريرهن على الوزير الذي يرفعها بدوره إلى ولاة الأمر!.

بعد تحية الجميع انتهى المؤتمر الصحافي وعادت مادلين إلى غرفتها.

واشنطن التي أرسلت سفيرها للوزير شاهين لتحذيره قبل بضعة أيام، ما زالت تشعر بقدر كبير من القلق نظراً لتطور المعلومات الواردة من العاصمة السلطانية. السلطان يقضي الوقت في إحدى مزارعه خارج العاصمة يستمتع بوقته بين الغزلان والطيور، وأخوه شاهين المتمسك بحقه في العرش هده المرض وشغله السهر والشراب عن رعاية قضايا المواطنين.

آخر تقرير دوري أرسلته السفارة الأميركية من عاصمة جبران إلى واشنطن يؤكد أن الانشقاق بين أبناء جبران أخذ بعداً خطيراً وإن كان غير ظاهر بين مجموعة المبعدين عن السلطة من جهة وإخوانهم المسيطرين على السلطة والثروة من جهة أخرى. ويشير التقرير هنا إلى الوزير سهران وشقيقه شاهين وأبنائهما، ويضيف السفير في تقريره الذي اعتمد فيه على لقاءات شخصية مع بعض أبناء جبران المبعدين إضافة إلى بعض المهتمين المحليين أن مشاعر الغضب والرغبة في التغيير تتجاوز بكثير عائلة آل جبران إلى المواطنين بكل فئاتهم حيث يشتكي معظمهم من الفقر والبطالة في الوقت الذي تنعم فيه عائلة جبران والمقربون منها بالعائدات المالية والرعاية الصحية المميزة والحماية الرسمية ضد كل المساءلات.

الساعة الثانية عشرة ظهراً. ناهد تتصل بمادلين التي عادت إلى

غرفتها بعد تناول إفطارها، وبدأت تعد ما يمكن طرحه من أسئلة وموضوعات على نزيلات سجن النساء على سبيل الاحتياط، فهي تحب أن تكون جاهزة في كل الحالات ومستعدة لما يعرض لها في هذه البلاد الغريبة! وفي قمة عصفها الفكري ومحاولتها تحرير ما يخطر ببالها من أسئلة رن جرس هاتفها المحمول:

ـ ألو، مرحبا ناهد، أنا أحسدك على نشاطك في العمل مع أننا سهرنا مع بعضنا حتى ساعة متأخرة في الليلة الماضية.

ـ لقد تعودنا على هذه الطريقة، وبإمكاني التعويض بنوم ساعتين بعد الظهر، بالمناسبة لدي خبر سار لك.

ـ حقاً؟ ما هو هذا الخبر؟

ـ لقد اتصلت مديرة مكتب السيدة غزالة وأخبرتني أنها تمكنت من إقناع الوزير بالسماح لك بزيارة السجن، لكن الموافقة جاءت لمدة محدودة ربما ساعة أو ساعتين.

ـ مع أنها قصيرة إلا أنها أفضل من لا شيء، وهل حُدّد الموعد؟

ـ حتى الآن لا أعرف التفاصيل، لكنها قالت إنها ستبلغني بها هذه الليلة، إدارة السجن ستحدد الوقت حسب ظروفهم، سأنتظرك الواحدة ظهراً لنتناول الغداء.

ـ لا، أفضل أن يكون اللقاء في المساء، فأنا ما زلت متعبة ولم آخذ كفايتي من النوم.

ـ كما تحبين، هل الثامنة مساء مناسبة لك؟.

ـ نعم مناسب جداً، اتفقنا، إلى اللقاء.

وصلت التعليمات من الوزارة لمأمور السجن بالاستعداد للزيارة،

على أن تحدد إدارة السجن موعد الزيارة خلال هذا الأسبوع وتقديم التسهيلات للصحافية الأميركية مع التأكيد على منع تصوير الأشخاص والسماح فقط بتصوير بعض العنابر والتجمعات المميزة. بعد تفكير ومشاورة مع بعض مسؤولات الرعاية في السجن وجد المأمور أن يوم الأربعاء هو أنسب يوم للزيارة الصحافية لعدة أسباب، منها أنه اليوم المخصص للتنظيف الأسبوعي الذي يبدأ من الساعة السابعة صباحاً حتى الثانية عشرة، إضافة إلى أنه آخر يوم يتميز فيه السجن بهذا العدد القليل من النزيلات المتوقع ازدياد أعدادهن ابتداءً من يوم الخميس حيث يستقبل السجن مجموعات جديدة تم تحويلهن من مناطق أخرى. أبلغ المأمور دائرة السجون في الوزارة باختياره وبأنه سيكون جاهزاً لاستقبال الصحافية بعد الظهر.

في ذات الوقت أبلغت مسؤولات العنابر النزيلات بأن ظهر الأربعاء ستأتي صحافية أميركية لزيارة السجن، وتم تحذيرهن من الإفراط في الكلام أو إبداء أي نوع من الشكوى أو التذمر، ولا بد من الاهتمام بهيئاتهن.

وصل الخبر في المساء إلى مكتب السيدة غزالة، وقبل وصول مادلين إلى منزل صديقتها ناهد تلقت الأخيرة مكالمة هاتفية بتحديد الموعد بعد غد الأربعاء الساعة الرابعة بعد الظهر ولمدة ساعتين، وأضافت السكرتيرة خلال مكالمتها مع ناهد قولها إن السيدة غزالة تدعوكِ أنت وصديقتك الصحافية لزيارتها غداً الثلاثاء ظهراً في مزرعتها شمال العاصمة وتناول الغداء.

بمجرد وصول مادلين أخبرتها ناهد بالموافقة على طلبها وتحديد الأربعاء موعد الزيارة، كان الخبر ساراً ومشجعاً بالنسبة لمادلين

التي لم تكن تتوقع أن تسير الأمور بهذه السهولة.

اقترحت مادلين على صديقتها ناهد فكرة الاتصال بالسيدة غزالة لشكرها على دعمها و.. وقبل أن تكمل فكرتها قاطعتها ناهد بقولها:

ـ لا حاجة للاتصال لأننا مدعوتان لقضاء نهار غد الثلاثاء بصحبة السيدة غزالة في مزرعتها، وبإمكانك أن تشكريها وتطمئني إلى صحتها في الوقت نفسه.

ـ ماذا حصل لها؟ هل تعرضت لمكروه؟

ـ بحسب ما فهمت من سكرتيرتها أنها شعرت بوعكة صحية أثناء الاحتفال ولذلك تأخرت في الحضور ويبدو أن التعب قد عاودها بعد ظهر اليوم، إلا أنها استعادت نشاطها في المساء كما تقول السكرتيرة.

في سجن النساء الجميع مشغول بزيارة الصحافية، لا حديث بين النزيلات إلا عن الصحافية، الأمهات في عنبر السجينات الحاضنات يحلمن بتصوير أطفالهن الذين ولدوا داخل السجن، والموقوفات على ذمة قضايا يتساءلن عن المساعدة التي يمكن للصحافية الأميركية تقديمها لهن لاستعجال محاكمتهن، والوافدات اللاتي صدرت بحقهن أحكام بالجلد أو السجن لفترات طويلة يفكرن بطريقة لإثارة قضاياهن عبر وسائل الإعلام والمنظمات الحقوقية لحمايتهن من هذه الأحكام المزاجية القاسية.

زنزانة ١

أو زنزانة الأجنبيات حسب المتعارف عليه داخل السجن تضم ثلاث سجينات، الأولى محسودة وهي باكستانية في الأربعينيات من العمر متهمة بتهريب مخدرات وقد ألقي القبض عليها أثناء تفتيشها في مطار البوابة رغم نفيها المتكرر لعلمها بتلك المخدرات وأنها لا تعرف حتى شكل المخدرات، وربما وضعت في حقيبتها في مطار إسلام أباد كعشرات الحالات السابقة. والثانية أم إدريس التشادية متهمة بإدارة شبكة للدعارة وهي معروفة بتعدد علاقاتها مع شخصيات نافذة في الأجهزة الأمنية ويظهر هذا النفوذ من خلال الاتصالات التي تستقبلها إدارة السجن للتوصية والاهتمام بها وتلبية كل احتياجاتها داخل السجن كما تلبى طلباتها وهي خارجه، ورغم نشاطها المشبوه والمشهور في مدينة البوابة منذ خمسة أعوام إلّا أن هذه هي المرة الوحيدة التي يطبق في حقها حكم قضائي «مخفف» بعد وشاية من أحد مواطنيها إلى

إحدى الجهات الأمنية القليلة التي لا تربطها بها علاقة أو مصالح مع بعض العاملين فيها، وكان دافع المخبر هو الانتقام منها لخلافات مالية بينهما، وسيفرج عنها بعد شهرين لتغادر العاصمة وتعود إلى نشاطها السابق على الساحل الغربي. الثالثة روجينا وهي ممرضة فلبينية.

ورغم الأشهر الثلاثة التي جمعت روجينا بأم إدريس ومحسودة في مكان واحد ومساحة صغيرة إلّا أن علاقتها بزميلتيها ليست بقوة علاقتها بمريم وهي نزيلة زنزانة أخرى منذ شهرين بتهمة القذف والتطاول على القضاء وترويج الأكاذيب.

مريم معلمة لغة إنكليزية في مدرسة ثانوية بمدينة الرابية، تقدمت منذ سنة إلى القاضي خلف تطلب الخلع من زوجها المعلم سعد الذي اكتشفت أنه يتعاطى المخدرات ويمارس الشذوذ في بيت الزوجية خلال غيابها، وقد كشفته بنفسها عندما عادت في إحدى المرات فجأة، وأحياناً يضع لها المنوم في الطعام أو الشراب حتى يمارس أفعاله بدون أن تشعر به.

روجينا تعرف قصة مريم مع القاضي بكل تفاصيلها وتنتظر فترة التشميس اليومي لتلتقي صديقتها في ساحة السجن من كل يوم ولمدة ساعة واحدة فقط تبدأ الساعة العاشرة صباحاً، وهي فترة مناسبة للمراقبات للقيام بجولة تفتيش في أكبر عدد ممكن من العنابر الشاغرة بحثاً عن الممنوعات بكل أنواعها. روجينا تبادر صديقتها بالحديث عن آخر الأخبار:

ـ هل سمعت بخبر زيارة الصحافية الأميركية؟

ـ نعم سمعت أنها ستأتي يوم الأربعاء.

ـ سأفكر بطريقة لإبلاغها بقضيتي على أمل نشرها أو على الأقل إيصالها إلى منظمات حقوق الإنسان.

ـ فكرة جيدة، ولكن كيف؟ ألم تسمعي تحذيرات المراقبة أم عطية من أن أي محاولة للكلام أو حتى بالإشارة ستعرضنا للعقاب؟

ـ نحن لن نحتاج للكلام ولا حتى بالإشارة، كل ما سنحتاج له ورقة صغيرة تكتب فيها كل منا قضيتها باختصار على شكل نقاط ونسلمها لها بطريقة لا تثير انتباه المراقبة أو المرافقات معها.

ـ المال كفيل بصرف اهتمام أم عطية وإقناعها بأن تكون بكماء، وصماء، وعمياء أيضاً عن رؤية أي شيء، ولن تحتاجي إلى أكثر من دقائق للسلام على الصحافية وتسليمها الأوراق، لكن علينا أن نتدبر المبلغ بأسرع وقت، هذه الشمطاء الجشعة تطلب في مثل هذه الحالات ضعف سعر المكالمات الهاتفية التي تتيحها لنا شهرياً.

ـ إذن اتفقنا، أنت تتولين التفاهم مع أم عطية وأنا أتحدث مع الصحافية وأسلمها الأوراق.

ـ سأكتب قضيتي الليلة وأسلمها لك غداً في هذا المكان.

أصحاب القرار في عائلة جبران لم يأخذوا التقارير الأميركية بشأن خطورة الصراع داخل الأسرة الحاكمة بالجدية الكافية، وكانوا يعتقدون أن الأميركان يبالغون في تقديرهم للمشكلة، وفضلوا معالجة خلافهم مع إخوانهم بالطريقة التقليدية، بعض الهبات المالية والمنح العقارية كفيلة بتهدئة الغاضبين وإسكات الناقمين،

ومصدر الخطر الحقيقي كما يرونه منحصر في الجهاديين وبعض الإصلاحيين، ولذلك تتجه كل جهودهم الأمنية والمالية والإعلامية للتصدي لذلك الخطر الوحيد.. كما يعتقدون.

من مزرعتها الغنية بالماء والخضرة والوجوه الحسنة والطيور المغردة، لا تنفك غزالة تفكّر بحالتها الصحية وهي تشعر أنها مصابة بداء خبيث يسبب لها حالات الإغماء والتعب، وما زالت مرعوبة من مفاجآت ذلك الوحش الذي قد يتسلل إليها في أي وقت، وللاطمئنان استدعت طبيبها الخاص إلى مزرعتها ليجري لها فحوصاً أولية، وبعد الكشف أطمأنت غزالة أن ثدييها ينعمان بالصحة والجمال، إلا أنه نصحها بعمل كشف إشعاعي على المخ في مركز أميركي متخصص في الأورام، فقالت له أنا بالفعل عزمت على السفر خلال أسبوعين لإجراء فحص هناك ولكن للاطمئنان على الصدر وليس على المخ، إلا أن الطبيب أكد لها أن لا علاقة بين الصداع وزغللة العين التي تنتابها مؤخراً وبين سرطان الثدي.

قبيل ظهر يوم الثلاثاء وصلت ناهد ومعها مادلين إلى مزرعة غزالة التي بدت في غير حالتها النفسية المعتادة رغم أنها تحاول إخفاء قلقها على الأقل خلال ساعات وجود ضيوفها. شعرت ناهد بأن مضيفتهما ليست بحالة طبيعية على الأقل كما يبدو على ملامحها، طمأنتها إلى أنها عوارض الإرهاق والإهمال في تناول الدواء وستزول مع الوقت. حاولت غزالة نسيان حالتها والانشغال بضيفتيها والاستمتاع بالوقت قدر الإمكان وقد نجحت في تحقيق ذلك الإحساس مؤقتاً إلى حين مغادرة ناهد وصديقتها مادلين التي شكرتها على ما بذلته في موضوع زيارتها لسجن النساء وذكرتها بموعدهما في أميركا.

في تلك الأثناء أنهى مأمور السجن جولة تفقدية على العنابر المرشحة لزيارة الصحافية وأعاد تذكيرهن بحسن التصرف والامتناع عن تبادل الأحاديث مع الزائرات وشدد على الظهور بشكل لائق ومشرف، وتحذيرهن من أي تصرف يسيء لحكومة السلطنة الرشيدة!.

صباح الأربعاء.. المأمور يحضر إلى مكتبه في ساعة مبكرة على غير عادته، يتابع بنفسه أعمال النظافة، وعلى غير عادته يمر بكل العنابر، السجينات لم يتعودن هذا الاهتمام الشامل من مأمور السجن الذي كان يخص عنابر معينة بالزيارة والاهتمام لأنه يحرص على رؤية ملامح أنثوية تفتح شهيته للنشاط والعمل إذ يكفيه مجسم الكآبة المقدر عليه في البيت.

في المكان المتفق عليه التقت مريم بصديقتها روجينا. وبعدما سلمتها ورقتها الخاصة بقضيتها طمأنتها أنها اتفقت مع أم عطية على منحها فرصة دقائق للتحدث مع الصحافية وتعريفها باسمها وعملها، ولم تعرف أم عطية بموضوع الأوراق التي سيتم تسليمها سراً.

وفي خلوة تحت ظلال شجر النخيل أخذت غزالة تسبح في ذكرياتها، وتنساب دموعها متقطعة من عينيها على صفحة الجريدة المفتوحة على حجرها، لم يسبق لها أن ذرفت دمعة واحدة على أي شخص بعد والدتها التي غيبها المرض الخبيث وهي بعيدة عنها بعد زواجها بعام واحد.

ـ لماذا تدمع عيني بعد عقدين؟ ولماذا جمال بالذات رغم أني عرفت الكثير؟.

ـ...............

سؤال محير يجول في خاطرها، هل كانت تستنكر حصول الفعل، أم تستفهم في داخلها عن سببه؟ لا فرق عندها، مهما كانت الإجابة، ما دامت أنها كانت تختار لحظتها وتستمتع بها حتى وان كانت حزينة. ما زالت تحدق بجريدتها العزيزة التي نشرت نعي جمال، تتصفحها مراراً، لا تلتفت للخبر البارز في الصفحة الرياضية عن تكريم الوزير سهران لفريق العاصمة، لم تتوقف عند صورة فارس وهو يتسلم جائزته من زوجها الوزير، مشاعر الأسى والحزن حجبت عنها تلك الصورة المضحكة، وذكرياتها الشبِقة، أو لعلها لم ترغب في رؤية أي شيء ماعدا صورة جمال، بابتسامته ونظرته تسترجع صوت قصائده، تتجول بذاكرتها في أرجاء المزرعة التي جمعت لحظات الصدق والفرح والكلام الجميل، تتعجب من نفسها:

ـ ما زلت أتذكره ولم تأخذ علاقتنا وقتاً كحال العلاقات السابقة! لم يقدم على ما أقدم عليه السابقون! ومع ذلك أتذكره وحده.

ـ.............

تغير حال غزالة، لم تعد تفكر بطريقتها السابقة، أصبحت تشعر بصفاء غريب، لعله بسبب الفراغات الكثيرة التي أصابت ذاكرتها، أو أنها شعرت بشيء من المكتوب.

حان موعد الزيارة. وصلت مادلين بصحبة ناهد إضافة إلى المسؤولة عن شؤون المرأة في الهيئة الوطنية لحقوق الإنسان وقد ألحقت بالزيارة بطلب رسمي. كان الجميع في استقبالهن، وبعد تقديم واجب الضيافة في مكتب المأمور، اصطحبتهن أم عطية في جولة على بعض عنابر السجينات وكانت البداية بحسب طلب مادلين في زنزانة الأجنبيات وكما أخبرها دونالد إنها زنزانة رقم ١، وهناك التقت بمادلين:

ـ أنا مادلين، تشرفت بلقائك.

ـ لقد سمعت عنك قبل الآن، اطمئني هناك من يتابع قضيتك.

وفي لحظة انشغال باقي الوفد مع كلام أم عطية سلمت مادلين الأوراق لضيفتهم الأميركية وفيها معلومات عنها وعن صديقتها مريم وبعض الحالات الإنسانية المنسية داخل السجن والوطن.

وحسب توجيهات المأمور لم تظهر مادلين أي شكوى أو تذمر للزائرات وكانت هذه حال بقية السجينات، لم يسمح لمادلين بزيارة جناح الحاضنات ولم تعرف بوجوده أصلاً، ولا بقسم العناية الطبية الذي يضم نساءً تعرضن لحكم أو عقوبة جلد أو بعض المريضات، كذلك لم يسمح لها بالتقاط صور إلّا لبعض العنابر والزنازين النظيفة والخالية.

طلبت مادلين التحدث إلى بعض السجينات، لم تكن إدارة السجن مستعدة لمثل هذا الطلب الذي يحتاج إلى إجراءات مسبقة وموافقة رسمية من إدارة الأمن الداخلي، إلّا أن المأمور استغل عدم ورود أي مانع صريح في الخطاب المرسل إليه الذي ينص على تسهيل مهمتها، وعلى هذا الأساس وجه مساعدته باختيار بعض النزيلات وإحضارهن إلى مكتبه بعد تهيئتهن للمقابلة الصحافية التي تقوم ناهد بمهمة الترجمة فيها، اختارت أم عطية ثلاث فتيات ممن أجرين مقابلات سابقة مع صحف محلية.

غادرت مادلين السجن بصحبة ناهد التي أوصلتها إلى الفندق، نزلت مادلين من سيارة صديقتها مسرعة ناحية المصعد وبمجرد دخولها لغرفتها بدأت قراءة الأوراق لتعرف تفاصيل ما تحمله من قضايا، كانت البداية بقضية روجينا المتهمة بأنها كانت تقدم الحقن المخدرة لمريضتها بمقابل مالي، وخلال الشهر الأول لاعتقال مادلين تدهورت حالة زهور النفسية مما دفعها للانتحار وبهذه النهاية المأساوية لزهور دخلت قضية روجينا في مرحلة خطيرة وصعبة جداً في وجه كل محاولات التوسط، حتى السفارة الفلبينية «ذات التأثير المحدود» لم تفلح جهودها الدبلوماسية من تحقيق أي دعم لمواطنتها إلا مجرد استفسارات ومتابعات عن بعد.

روجينا تؤكد في مكتوبها لمادلين أنها بريئة وَلا علاقة لها بالجرعات التي كانت تتعاطاها مريضتها زهور، وتضيف أن كل الذي تعرفه هو وجود علاقة عاطفية تربط زهور بشخص لم يسبق لها أن رأته إلا مرة واحدة عندما جاء إلى المستشفى لزيارتها ولم يسمح له بالدخول إليها، لكنها كانت تسمعها وهي تحدثه بالهاتف باستمرار، وتضيف روجينا أن زهور أخبرتها في وقت سابق أن عائلتها ترفض زواجها من حبيبها بسبب فوارق طبقية وعائلية بينهما.

وفي الورقة الثانية تحكي مريم قصتها مع رئيس المحكمة في مدينة الرابية حينما ذهبت إليه تطلب الخلع من زوجها الذي رفض تطليقها رغم طلباتها المتكررة ومغادرتها إلى بيت أهلها منذ شهور، وكان القاضي خلف يسألها عن أسباب طلبها، ويطلب منها ذكر تفاصيل حياتهما الزوجية. كانت مريم تعتقد في بداية الأمر أن القاضي يريد التأكد من وجاهة الأسباب وشرعيتها، إلا أنها شعرت ببعض التوجس من كلامه ونظراته حيث بدأ يطرح أسئلة محرجة وبطريقة لا تخلو من ألفاظ مخلة بالأدب لا تصدر عن شخص عادي فضلاً عن رجال الدين والقضاة، ورغم إظهار تذمرها ومعارضتها لنوعية الأسئلة وطريقة كلام القاضي معها إلا أن والدها الذي حضر برفقتها كان يطلب منها الصبر وتحمل كلام الشيخ الثقيل حتى تنتهي من مشكلتها، إلا أن القاضي ظل يماطل في القضية ويؤجل في حكمه أكثر من مرة. وفي الموعد أو اللقاء الرابع مع الضحية صاحبة القضية طلب القاضي خروج والد مريم من الغرفة حتى تأخذ صاحبة الدعوى راحتها في طرح مشكلتها بدون إحراج من الوالد.. حسب زعم القاضي، إلّا أن مريم رفضت خروج والدها وردت على القاضي بأنها لا تتحرج

من والدها لأنه يعرف كل التفاصيل. وبصراحة قالت إنها تتحرج من كلام القاضي نفسه وتستغرب من موقفه. وأمام إصرار القاضي على الاختلاء بطرف القضية حسب وصفه رضخ الوالد لرغبة القاضي وغادر الغرفة، ليبدأ الشيخ خلف بممارسة هوايته مع ضحاياه المكسورات، وأبدى استعداده لتطليقها من زوجها حالاً إن هي وافقت على الزواج به، مبدياً استعداده لتلبية كل طلباتها وشروطها.

لم تتمالك مريم نفسها وردت عليه بغضب ورفعت صوتها موجهة له أقبح الأوصاف. لقد شعرت أنه يساومها على نفسها، وأن مصيرها سيلحق بمصير عشرات النساء اللاتي رضخن لابتزازه ووقعن في شبكة الأنس والفرفشة التي يديرها في استراحته الأسبوعية، لقد عرفت مريم تاريخ القاضي بأحكامه ونزواته حتى هيئته وملامحه، ومن كثرة ما سمعت عنه عرفته قبل أن تمثل أمامه.

سمع والدها صراخها وهو جالس ينتظر في مكتب السكرتير، دخل مسرعاً يحاول تهدئتها ومعرفة سبب غضبها، ولم يكن ردّ فعل القاضي أقل حدة، فقد اختار الهجوم هو أيضاً ليدفع عن نفسه أي تهمة تدّعيها، بل وهددها باتخاذ إجراءات قضائية ضدها إن هي تمادت في إهانتها لمقام القضاء والتطاول على هيبة المحكمة، وكانت تخاطب والدها وهي غاضبة:

ـ هذا الشيخ المفترض أنه محترم والمفترض أنه يمثل العدالة والشريعة.. يساومني على نفسي.

ـ يا بنتي اهدئي، ولا تتسرعي ربما فهمت كلام الشيخ خطأ.

والدها، بخبرته السابقة في المحاكم، يعرف أكثر مما حصل مع ابنته ولا يستبعد أي تصرف يصدر من بعض القضاة، إلا أنه يعلم سلطة القضاة وقدرتهم على تحريف الحقيقة كيفما أرادوا، ويعلم أنه لا قدرة له ولا لابنته على مواجهة نفوذ رجال الدين.

عبثاً حاول والدها المسن إقناع القاضي بالعفو عن ابنته:

- يا شيخ اعتبرها مثل ابنتك، أنت تعرف ظروفها وما عانته مع زوجها لابد أنه يؤثر على أعصابها وحالتها النفسية، فلا يراك الله إلا محسناً.

- لا إحسان مع هذه الناشز! لقد تجاوزت الأدب ولا بد من تأديبها وعقابها لما صدر عنها من إهانات.

ولعله أراد الانتقام منها لأنها انتفضت في وجهه وفضحته في مقر عمله وقد عرف كل من كان خارج المكتب بتلك التفاصيل القبيحة.

قبل وصول غزالة إلى نيويورك لإجراء فحوصاتها الطبية، كانت مادلين تعد الحلقة الثالثة من تقريرها عن حقوق الإنسان في السلطنة تمهيداً لنشره في العدد المقبل بعد أن أثار تقريراها السابقان المنشوران قبل بضعة أيام ردود فعل غاضبة واستنكار الهيئات والشخصيات الحقوقية والمسؤولين في سفارة السلطنة في واشنطن على حد سواء.

أنهت السفارة الجبرانية مراسم استقبال غزالة في مركز الأورام بنيويورك يرافقها ابنها وشقيقتها ياسمين التي كانت تلازمها باستمرار. غزالة تشعر ببعض الدفء حينما تضع ياسمين يدها الحانية على جبينها، شعورها بدنو حدث ما يؤرقها ويزيدها ألماً نفسياً فوق ألم جسدها الذي يدور في أحشائه صراع محموم بين كريات اليأس وكريات الأمل، إلّا أنها لا تملك إلّا الانتظار

والمحاولة وهي على فراش المرض العضال. ياسمين تحيط بها من كل جانب كالملاك، تحاول تحقيق رغباتها حتى قبل أن تتلفظ بها، غزالة تشعر بصدق ما تبذله شقيقتها وبالكاد تعبر لها عن مشاعرها بحركة من جفنيها المتعبين أو ابتسامة ضعيفة رغم صدقها، وقد تتجرأ ببعض كلمات الامتنان الخافتة:

ـ كم أنتِ حنونة يا ياسمين، تذكرت أمنا رحمها الله عندما مرضت في صغري، كانت تجلس بجانبي كما تجلسين، وتضع يدها على جبيني كما تفعلين الآن، كانت تسهر وتنام بقرب سريري كحالك معي، وتسقيني وتطعمني بنفس طريقتك، كأنك هي أو كأنها أنتِ.

ـ رحمها الله.. كثرة الكلام تتعبك، حاولي الاسترخاء.

إلا أن غزالة تواصل حديثها بالسؤال عن ابنها:

ـ أين ذهب سيف؟ لم أره منذ يومين أخشى أنه متورط في مشكله أو أصابه مكروه.

ـ لا داعي للقلق، أنتِ تعرفين سيف، لا يحب المكوث في مكان واحد لفترة طويلة، اهتمي بصحتك ولا تفكري إلا في حالتك، وإذا لم يحضر خلال ساعة فسأبحث عنه حتى أجده وأحضره لك.

في ذات الوقت أنهى السفير الأميركي في عاصمة السلطنة اجتماعه مع احد أبناء جبران ممثلاً عن مجموعة الناقمين الكبار في السلطنة، لم يهتم سهران بحالة زوجته الصحية بقدر اهتمامه بما يحاك ضده وضد شقيقيه شاهين المصاب بسرطان الكبد وقرحة مزمنة في المعدة، وضاحي الذي يعاني من العشا «العمى»

الليلي منذ عدة سنوات وكان ضعف بصره محصوراً في فترة الليل أما الآن وبعد تقدمه في السن وإصابته بمرض السكري أصبح عاجزا عن الرؤية حتى في النهار، خاصة إذا كان الضوء خافتاً، ولذلك يحتاج إلى قدر كبير من الإضاءة المركزة حتى يتمكن من قراءة كتاب أو توقيع ورقة.

هذه المجموعة التي وصفها السفير الأميركي في تقريره الأخير بأنها مجموعة الكهول المريضة تستفرد بالسلطة والثروة في بلد مهم لكل العالم، وهذا الوضع المفتوح على كل الاحتمالات يثير قلق واشنطن.

التقارير الطبية تشير إلى أن حالة غزالة تزداد سوءاً، كما هو حال السلطنة بحسب التقارير السياسية والأمنية. وبعد نشر مادلين لتقريرها الثالث عن أوضاع حقوق الإنسان وما تضمنه من وقائع وقضايا مسيئة للمرأة وخاصة داخل السجون موثقة بالصور والأسماء وذكرت من ضمنها مريم وروجينا، حينها اضطرت حكومة جبران للخضوع لنصائح وزارة الشؤون الخارجية وبعض الجهات الدولية الصديقة حيث أصدر السلطان مرطان توجيهاته لوزير أمن السلطنة بالإفراج عن كل من لم تثبت إدانتها قضائياً. القرار الذي أُرسل لمأمور السجن لم يقتصر على مريم وروجينا فقط بحكم أن إدانتهما لم تثبتا، بل أضيف إلى قائمة الإفراج اسم «أم إدريس» التي لم تنه حتى تاريخه محكوميتها المخففة أصلاً، لا أحد يعرف من أمر بذلك، ولا متى ولماذا حصل، إنها سلطنة جبران بلد الممكن.

عادت المرأة الحديدية إلى مدينة البوابة، وخلال تواجدها في أحد المنتجعات الساحلية للاستجمام ونفض غبار السجن بعد مكوثها

«القصير» فيه، ظلت الاتصالات تنهال عليها بالتهنئة والاطمئنان من مسؤولين وضباط أمنيين، في مقابل هذه الاتصالات الدافئة محلياً، كانت تجري اتصالات ملتهبة في الخارج بين جهات دولية للبحث عن ابن وزير الأمن الذي اختفى منذ يومين في مدينة نيويورك.

بعدما يئست خالته ياسمين من استجابة هاتفه النقال لكل محاولاتها سارعت إلى إبلاغ السفارة التي بدأت بدورها بإجراء اتصالاتها الرسمية للبحث عن سيف ابن الوزير سهران الذي اختفى منذ ثمان وأربعين ساعة. والدته المريضة كانت دائمة السؤال عنه وشقيقتها تطمئنها إلى أن ابنها سيأتي بعد أن ينهي بعض التزاماته التي كلفه بها والده الذي كان مشغولاً بطمأنة واشنطن على استقرار السلطنة وقدرة المجموعة الحاكمة «الكهول» على تنفيذ الإصلاح السياسي والانفتاح الثقافي الذي يطالب به الغرب منذ عقود، إلا أن الوقت لم يكن في صالح الحرس القديم الذي أوصل البلاد إلى هذه الدرجة الخطيرة من التأزم على كل المستويات، ولم تفلح كل محاولاتهم في ثني الإدارة الأميركية عن قرارها بخصوص تعديل النظام السياسي في السلطنة، ويبدو أن كل ما بذلوه من خفض أسعار الطاقة المرسلة لواشنطن ومنح بعضه لها مجاناً، وتجديد عقد القاعدة العسكرية في السلطنة، زيادة رأس المال المستثمر في البنوك الأميركية، والإفراج عن بعض المعتقلين الحقوقيين والكتاب الليبراليين، ومنح المرأة مزيداً من الحقوق والحريات الشخصية، كل تلك التنازلات والهبات يبدو أنها جاءت في الوقت الضائع ولم تغير في قناعات أصحاب القرار الأميركي

خلال ساعات حددت السلطات الأميركية مصير سيف، وأبلغت سفارة بلاده أنه نقل إلى أحد المستشفيات بعد تعرضه وهو في حالة سكر شديد لإصابات بليغة في شجار مع مجموعة من الزنوج في أحد النوادي الليلية وسيمثل بعد شفائه أمام المحكمة للنظر في القضية المرفوعة ضده لتعويض الكازينو عن الأضرار التي تسبب فيها.

كانت ياسمين تعيش تلك اللحظات القاتمة وتراقب ما حل بأسرتها وما يدور ببلدها، كان ألمها يزداد مع كل خبر سيئ، وقلبها ينفطر كمداً مع كل آهة موجوعة أو نظرة يائسة تصدر من أختها التي لا تكاد تفيق إلا قليلاً وللحظات قصيرة. أيقنت ياسمين أن أختها شارفت على الرحيل، يخيل إليها أنها تشاهد عملاً درامياً بنهاية خارجة عن النص، تنظر إلى أختها بتعجب، هل هذه هي غزالة الشاردة، من يصدق أن كل ما كان فيها من حيوية وتطلعات ونشوة يتحول خلال أيام إلى عدم! جاء الطبيب المشرف على حالة غزالة برفقة نخبة من الأطباء الاستشاريين لإعداد تقرير نهائي يوضح نسبة استجابة الورم للعلاج الكيميائي وإمكانية التحسن المتوقعة، وياسمين واقفة تترقب نظرات الأطباء وهمساتهم مع بعضهم، لم تتمكن من كبح تدفق الخواطر والأسئلة وترددها بين العقل واللسان حتى قررت السؤال ومعرفة نتيجة فحصهم:

ـ طمئنّي يا دكتور! كيف وضعها الصحي؟ هل هناك أمل؟.

ـ سأكون صريحاً معك يا سيدتي، للأسف جسدها لا يستجيب للعلاج، والورم قد انتشر في نسبة كبيرة من المخ، ولم يبق لدينا ما نقدمه غير المسكنات.. والانتظار.

ـ انتظار.. انتظار ماذا؟ هل تقصد أنها ستموت؟.

ـ لا أعتقد أن جسدها سيصمد أكثر من ثمان وأربعين ساعة، إلا إذا وقعت معجزة سماوية لتوقف هذا الورم الخبيث وهو في مراحله الأخيرة.

وكأنها حاوية للمآسي، مخلوقة للبؤس والألم، وكأن الحرمان خُلق من أجلها، زهرة تُسقى من ماء آسٍ في قعر الزمن، ياسمين امرأة معجونة بالصبر، تخضع بمفردها لكل أحكام التعاسة في العالم رغم أنها تعيش في قصر وتنام على المخمل وتلبس الحرير، وتدهن بالورد والمسك، وتأكل أطيب الطعام، ياسمين كائن محروم بكل معاني الكلمة، لقد حرمت من الزوج الطبيعي، ومن أطفال طبيعيين، ومن المتعة الطبيعية، يمكنها أن تحصي عدد المرات التي قبّلها فيها زوجها، وعدد المرات التي نام زوجها بجوارها، ويمكنها أن تحصي عدد المرات التي مارست الجنس معه وعدد المرات التي شعرت بما تشعر به النساء من المتعة والإثارة الزوجية.

عندما طلبها شاهين للزواج قالوا لها إنه يعشق النساء ويحب مداعبتهن والبقاء في فرشهن ساعات طويلة، فتخيلت نفسها أحب النساء إليه، وأكثرهن متعة، وحلمت بحياة زوجية سعيدة تعوضها عن تجربتها الأولى، عندما تأكد حملها لم تسعها الدنيا من الفرح، وكانت تحلم بأطفال يحيطونها بالصراخ واللعب والضحك، إلا أنها لم تُرزق إلا بطفل وحيد معاق عقلياً.

تُعرّف قواميس اللغة كلمة «الحرمان» بأنه المنع من الخير والعطاء، كما تُعرف «البؤس» بالفقر والخضوع والعوز، لكن ياسمين المحرومة لم تمنع من الخير فكل أبوابه مشرعة أمامها، وقبل أن

تسأل شيئاً تجده متاحاً بين يديها بلا حساب، وياسمين البائسة لم تكن في يوم فقيرة حتى عندما كانت في بيت والدها، ولم تشعر هي ولا أي من إخوتها بالعوز والخضوع للحاجة.

معاناة ياسمين مع البؤس والحرمان شعور مزمن وواقع متجذر بالطين لا خلاص منه إلا باختيار المغادرة الأبدية وقد لا تنجح في تحقيقه كما تريد. لقد كانت محرومة من حق الاختيار الذي يملكه الفقير البائس، وإمكانية المحاولة، والبحث عن الأفضل، عندما تشعر امرأة أنها معلقة بمزاج أو رغبة أو قدرة رجل واحد أمامه كل الملهيات والمغريات أو كالبيت الوقف، عندما تعيش امرأة مكبلة وممنوعة من أبسط حقوقها في التعبير الأنثوي، عندما تفقد المرأة حقها في الاختيار بين حياتين أو رجلين أو مكانين، ولا يبقى أمامها إلا الاختيار بين الموت على وجه الأرض والموت في باطن الأرض.. أي حياة هذه التي رُسمت لها ووُضعت فيها بلا حق وقدرة على التعبير، أي امرأة يمكنها مواصلة حياتها بلا أمل في غدٍ جديد قد يكون قريبا أو بعيدا أو صعباً، المهم أنه ممكن أو محتمل، عندما تعيش امرأة مكتملة العقل والجسد تكاد تنفجر أنوثة وعاطفة وتكون محرومة من حقها في ممارسة إنسانيتها وطبيعتها كأي امرأة، ومحرومة من ممارسة أمومتها، ومحرومة من ممارسة حقها في اختيار حياة أخرى قد تجد فيها بعض ما تحتاج له.

الفقير قد يغتني أو تُسد حاجته، والعانس قد تجد لها زوجاً مناسباً، والزوجة يمكن أن تحمل وتُرزق بطفل أو أكثر، والمطلقة يمكنها أن تتزوج مرة أخرى وكذلك الأرملة، أما ياسمين فمحرومة من كل هذا.... أيوجد حرمان أو بؤس أفظع من هذا؟.

تستمر ياسمين بلا كلل ولا ملل في مرافقة شقيقتها المريضة وتلازمها بصدق ومحبة، تنظر إلى وجهها وكأنها تقرأ صفحة مليئة بالحروف القديمة والكلمات المبهمة، تضع كفها الرطب على جبين أختها وتهمس لها:

ـ بقي لك أو لي أو للأمل يومان وتغادرين الحياة، يقول الطبيب إن جسدك لا يستجيب للعلاج، هل ترفضين الحياة أم تراك مللت كما هي عادتك، أم أنك تعبت واخترت أن تستريحي؟ أكاد أموت من الرعب كلما تخيلت أني سأبقى وحيدة.. لمن أشكو؟ مع من أضحك؟ من سيحضنني ويمسح دمعي؟ يبدو أني سأحرم حتى من الشكوى بعد الوجع، ومن البكاء بعد الألم، سأحرم من أمي مرة أخرى.. بلغني اليوم من مكتب شاهين أنه لا يكاد يتحرك من المرض وأنه سينقل خلال أيام إلى ألمانيا للعلاج، وعلى كل حال هو سيغادر السلطنة فلن يتحمل البقاء بعد أن فقد كل شيء، ويبدو أن الأميركان قرروا الاستغناء عنه، وهو بدوره قرر الاستغناء عني، وعلي أن أختار بين باريس وسويسرا للإقامة مع ابني، أخيراً سأنال حريتي، كم أتمنى أن يقضي الله أمراً آخر غير الذي سمعته من الطبيب، أحلم بعودتك للحياة كما كنت حرة تتحركين كالنحلة بلا كلل بين أزهار الحياة، مازلت أحتاج لك، أحتاج لمن يسمعني، أحتاج لمن يَصدقني النصيحة ويُصدقني في كل ما أقوله وأشعر به.

ـ ....

تناولت ياسمين وهي جالسة على أريكتها المعتادة بقرب سرير شقيقتها المريضة كتاباً لم تتمكن من إكماله في الليلة السابقة،

كان الكتاب يتناول بالتفصيل زهرة الياسمين.. أنواعها، ألوانها، رائحتها، مواطن زراعتها، ويذكر أن شجيرات الياسمين تفقد أو تتخلص من أوراقها في فصل الشتاء من كل عام، وبعضه الآخر دائم الخضرة على مدار العام، وأن بعض أزهارها بيضاء وبعضها قرنفلية اللون وأحياناً حمراء.

ـ أيّ من هذه الأنواع يشبهني أو أنا أشبهه؟ لطالما تمنيت أن أكون كطائر السنونو حتى أهرب من برودة غرفتي الواسعة وأطير بعيداً كما يطير بحثاً عن الدفء، مازلت أخشى أنني سأنقل كما تنقل الطيور في أقفاصها.. حتى في مغادرتي لم أكن حرة.

ـ ....

وفيما هي مستغرقة في التفكير بحالها، اتصل بها شقيقها عزيز:

ـ ألوو.. أنا عزيز.. كيف حالك؟

ـ بحمد الله.. أين أنت؟

ـ أنا في أميركا الجنوبية، حصلت على الجنسية البرازيلية وسأقيم هنا بصفة مستمرة، وماذا عن غزالة.. كيف حالتها الصحية؟.

ـ التقارير الطبية لا تطمئن، وخلال ثمان وأربعين ساعة يتحدد مصيرها، ومازلت بجانبها ولن يفرقنا إلا الموت.

ـ وأنتِ أين ستذهبين؟ سمعت أن شاهين سيغادر للعلاج وربما لن يعود.

ـ نعم، وقرر تطليقي، وأخبروني أن بإمكاني اختيار أي دولة لأعيش فيها.

ـ لماذا لا تأتين إلى البرازيل وتعيشين معي، أنا كنت أحسب حساباً لمثل هذه الظروف وأسست تجارة هنا وأملك منزلاً كبيراً.

ـ تجارتك خطيرة وغير آمنة وأنا أبحث عن الأمان، إضافة إلى أن ابني مهند يحتاج إلى علاج ورعاية خاصة لا توجد إلا في أوروبا، لقد أتيحت أمامي فرصة للاختيار لأول مرة، وسأختار باريس وسأبدأ فيها حياة جديدة.

ـ ....

بدأت وسائل الإعلام الغربية تتناقل أخبار القلاقل والمواجهات الأمنية داخل السلطنة، نُشرت كتابات وتحليلات متعددة في أكثر من عاصمة تتناول خطورة الوضع السياسي، وتنبأت أخرى بتطور الأوضاع إلى الأحسن مع تأثيرات قصيرة المدى على الأسعار العالمية للطاقة. انعكس الصراع المتنامي على السلطة داخل البيت الحاكم بكل تداعياته على الحياة العامة وفي مختلف المؤسسات الرسمية، انضم الأصوليون التقليديون إلى الجناح القديم، وهم أصحاب السلطة الواقعية، في مقابل المطالبين بالتعديلات والإصلاحات السياسية وبعض الوطنيين في المؤسسات العسكرية.

في خضم تلك الفوضى العارمة والصراعات المتعددة على السلطة والثروة كان السلطان مرطان يحاول الظهور وكأنه الإمام الحَكم بين إخوته، والحاكم المشفق على شعبه، وصاحب القرار الفاصل في الأزمات. لكن السفارات الغربية في عاصمة السلطنة، والمراقبين للأحداث في الداخل والخارج يعلمون أن السلطان فقد

كثيرا من صلاحياته التي لم تكن خالصة له في الأصل، وأنه محكوم بالتوافق مع إخوته المسيطرين على الأجهزة العسكرية والأمنية الرئيسة، وكان القرار السياسي المعد سلفاً في واشنطن منذ عامين يتبنى الإبقاء على مرطان في سدة الحكم وإدخال المبعدين وأبنائهم وبعض من أبناء الكهول التقليديين في سلطة جديدة تدير الحكم في السلطنة وتعيد لها حيويتها وصدقيتها السياسية لدى الشعب. يحرص الغرب على استمرار عائلة جبران الموثوق فيها دوماً، وما زال سهران حتى الساعة متمسكاً بسلطته ونفوذه يقاوم كل محاولات الإصلاح والتغيير مستعيناً ببعض الأصوليين الذين كان يدعمهم خلال السنوات الماضية.

كان العالم يتابع باهتمام ما يحدث في عاصمة السلطنة بين قَلِق ومشفق من جهة وشامت فرح من جهة أخرى، وتظهر الأيام أن الكارهين والناقمين المتضررين من حكم آل جبران في الداخل والخارج أكثر بكثير مما كان متوقعاً.

بعد انتهائه من صلاة الجنازة على جثمان الراحلة غزالة في جامع سلطانة ومغادرة البعض لتشييعها وقف الشيخ فاروق مخاطباً المصلين الباقين في المسجد يذكرهم بقوله تعالى «**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**»:

ـ نبشركم أنه ليلة البارحة ألقي القبض على سارق الأحذية الذي استمر في جرائمه ضد المصلين لمدة سنة كاملة، وسيطبق في حقه الحد الشرعي.

ـ يا شيخ.. والذين سرقوا منا ثرواتنا وحياتنا ومستقبل أولادنا متى

يلقى القبض عليهم ويطبق في حقهم الحكم الشرعي؟

-...............

حارس المسجد يفتح الباب ويتجه ناحية الشيخ ويطلب من الجميع مغادرة المسجد لأن الفوضى بدأت تنتشر في العاصمة والتظاهرات الشعبية عمت الشوارع الرئيسة، ولا بد من إخلاء المسجد وإغلاقه فوراً.

الـمؤلف

تخصص صحافة وإعلام وناشط سعودي في شؤون المجتمع المدني.

شارك في عدة ندوات ولقاءات متخصصة في مجالات حقوق الإنسان والمجتمع المدني.

كاتب سياسي، نشر مقالات عدة في مجموعة الصحف السعودية واللبنانية والعربية الأخرى.

له مجموعة مقالات في عدد من المواقع الإخبارية منها موقع www.middle-east-online.com البريطاني.

نشرت له مجموعة بحوث عن حقوق الإنسان والمجتمع المدني.

ـ صدر له:

السودان بين ثورة الإنقاذ وإنقاذ الثورة.

كتابات عاصفة في الفكر والسياسة.

الشيعة السعوديّون، قراءة تاريخية وسياسية



إبراهيم الهطلاني

مملكة جبران

غزالة شخصية خيالية تتحرك في محيط ممكن وفي أزمنة مكشوفة، تنبعث السلطة أحياناً من جسدها وأحياناً أخرى من عقلها وفي الغالب تستمد قوتها من ضعف الآخرين، قد يكون الآخرون شعباً بكامله وقد يكون فرداً صاحب سلطة، الشهوة كما الشبهة تحتاج لسلطة كي تنتشر وتنفر عن إلى أجل، لكنها لا تستطيع السيادة إلى ما لا نهاية لأن دوامها مرتبط بغياب المعرفة التي يحاربها أبناء جبران.

أمامك عزيزي القارئ لوحة ذهنية تشكلها أسماءٌ وأفعال، صفات وأحوال، ضمائر حاضرة وأخرى غائبة، غائبة حتى الموت. لا يستهدف هذا السرد واقعاً معيناً أو منطقة محددة أو شخوصاً بعينهم، إنها حالة عربية قد تصادف تاريخاً ما أو قصة مضمرة في لاوعيك أو مشهداً مؤلماً حفرته أسماءٌ لامعة في ذاكرتك، وربما تتمكن عزيزي القارئ من فهم معين أو إشارة ما تسقطها على واقعك، وقد لا تجد ما يستحق التوقف، ولعلك تمر بكل أسماء هذه القصة وأحداثها مرور الكرام بجدها وهزلها ولا تعيرها اهتمامك. في كل الأحوال أتطلع إلى ترك أثر ممتع في نفسك أو بصمة لامعة على اقل تقدير.

هذه الرواية تناقش فكرة وقضية لا تعني مجموعة بعينها، تتناول حالة اجتماعية وسياسية واقعة في المشرق أو المغرب العربي، لا يهم المكان أو الزمان بقدر أهمية المشكلة وفداحتها واستفحال العلة التي يعيشها مجتمع سلبت منه كل أدوات الكشف والعلاج وقد شلت إرادته وشطبت مصطلحات الحرية والاختيار من كتبه ودفاتره ورُفعت أقلامه من كل حياته، لا يهم إن كان هذا مجتمعي أو مجتمعك أو مجتمع صديقك أو مجتمعاً قرأت عنه، المهم أننا نعرفه ونعترف بوجوده.

وفي الخاتمة أذكرك عزيزي القارئ أنني لست مسؤولاً عن أي أحوال أو أسماء أو صفات جغرافية أو سياسية أو اجتماعية خطرت في بالك نتيجة تأويلك أو تشبيهك أو تمثيلك لأي حادثة مررت بها في الرواية.

(المؤلف)

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

ISBN 9953-21-499-9
9 789953 214993